أربع ساعات
في أبو ظبي !!

تأليف

عبدالله زايـد

أربع ساعات في أبوظبي !!
عبدالله زايد

(ردمك) ISBN978-9948-444-97-8
الطبعة الأولى: 2013
جميع الحقوق محفوظة بموجب إتفاق وعقد

IQRAni Publishing House
P.O. Box 37738,
Abu Dhabi
United Arab Emirates
Tel.:0097126325551
Fax:0097126325556
Email:info@iqrani.net

All rights Reserved. No part of this publication may be reproduuced, Stored in a retrieval system, transmitted in any form or any means, electronics, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written premission of the Publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أونقله بأي طريق شكل من الشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إهداء

الى صاحبتي... موضي

التي لا تحب قراءة كلماتي...

فهرس

الإهداء	3
الجواز الأخضر	6
فرصة !!	17
ليلى في اليونان !	21
الحياة	28
امرأة لا تبكي	30
أربع ساعات في أبو ظبي !!	33
هذا المجتمع وحسب	43
طفل في زمن الأقزام !	46
الحب	64
السقوط المريع !!	66
ميلاد	68
ويل	69
كيف !!	70
العلقم المرير !	71
مجرد دكتورة !	73
مهانون جائعون !	75
قمة العدالة !	77
أيام	79
بيد الشيطان !!	80
الكلاب أرحم	83
أذلاء	85
الخروج	86

الجواز الأخضر

أطلب من الموظفين المدنيين والعسكريين وممثليها في الخارج ومن كل سلطة أخرى تعمل باسمها ومن السلطات المختصة في الدول الصديقة أن يسمحوا لحامل هذا الجواز بحرية المرور وأن يقدموا له المساعدة والرعاية .

(جملة مدونة على جواز السفر)

للمرة الأولى أقرر السفر وحيداً، لطالما كانت رحلاتي الماضية بصحبة آخرين، لكن سرعان ما تتباين وجهات نظرنا وتكثر خلافاتنا، فتتحول الرحلة من استجمام وترفيه إلى مشادّات وخصومات، كنت دوماً وحيداً حتى وسط الضجيج والزحام. حتى حينما أشاركهم السكن تكون الوحدة مطبقة، فهم يذهبون للترفيه متناسين وجودي. إنني أعذرهم فالاختلاف متأصل، فهم لم يحضروا هنا من أجل الاستيقاظ في الصباح الباكر والذهاب إلى دور الثقافة والمتاحف، أو لزيارة الأدباء والمكتبة الوطنية ونحو ذلك.

لذلك؛ وبسبب هذا كله، لم أتردد في تجربة السفر وحيداً، وعندما كنت أجول على المكاتب السياحية لمشاهدة عروضها والمفاضلة بين أسعارها، لم يكن لدي صديق أسأله رأيه أو وجهة نظره، كان القرار برمته يعود لي وحدي. شددت حقائبي وكانت خططي أن أظل في هذه العاصمة لمدة أسبوع، ثم

الانتقال بالقطار إلى المدينة الساحلية لمدة أسبوع آخر ثم العودة.

في صباح اليوم التالي من وصولي وإقامتي في أحد الفنادق الفاخرة، قضيته في جولات على المراكز القريبة من الفندق، وعند عودتي ظهر ذلك اليوم، لم أجد حقيبتي وحاسوبي الشخصي. وفورا اتصلت بالمدير المناوب في الفندق. أخبرته أنني سأضطر لإبلاغ الشرطة. لكنه أثبت أنه ليس على قدر المسؤولية، فقد أجابني: عند وصولك مساء البارحة لم يشاهدك أي من العاملين تحمل أكثر من حقيبة واحدة، هنا اضطررت للاتصال بالشرطة المسؤولة عن السياحة، حيث حضر رجل برتبة كبيرة ومعه عدد من المرافقين، وسرعان ما امتلأ الدور الذي أسكنه برجال الأمن، وقاموا بأخذ بصمات جميع العاملين في الفندق من واقع كشوف الرواتب، فضلا عن تمشيط الجناح الذي سكنته ورفع البصمات الموجودة فيه. قدمت لي ضابطة برتبة نقيب ورقة لأسجل عليها المسروقات، فكتبت تذاكر سفر بطاقات مصرفية، فضلا عن مبلغ 4000 دولار نقدا، وجهاز حاسب، إلى جانب كاميرا فيديو، أبلغتها بعد أن لمست تعاطفها الجم معي أنني في ورطة فعلية، وأني مفلس تماما، و لم أمر بمثل هذا الموقف من قبل، ثم إنني لا أفكر سوى بالعودة إلى وطني، التي لا أعرف كيف ستتم. كان المدير المناوب يصر على أني لم أحضر للفندق إلا بحقيبة واحدة، وبدا أن العقيد قد حصل على بعض الامتيازات أو الوعود، فكان متعاطفاً معهم. طلبوا حضوري صباح اليوم التالي إلى مخفر الشرطة. في تلك اللحظات حضر المدير العام للفندق، حيث أخبرني باستيائه مما حدث، وتمنى أن أكون صادقاً فيما أدعية. وقال إنه لم يشاهدك أي من العاملين في الفندق تحمل أكثر من حقيبة واحدة، فأنت أيضا لم تطلب من عامل الحقائب مساعدتك على حمل ثلاث حقائب، أكدت أنني صادق ولست بحاجة لاتهام أحد، أو لتشويه اسم الفندق، أما عن عامل الحقائب فقد أشفقت عليه ولم أحتج لخدمته، فقال: «تقديرا لوضعك سنلتزم بتوفير السكن لك فقط لمدة أسبوعين، كما كنت حاجزاً على الرغم من عدم دفعك سوى لخمسة أيام»،

وانصرف الجميع وظلت نظرات العاملين في الفندق مصوبة باتجاهي، أشعر بها في صميم عظمي من دون مبرر. جلست في بهو الفندق تأكلني الأفكار التي لا أجد فيها سوى الاجترار والإفلاس. أدخلت يدي في جيب سترتي وأخرجت ما كان بداخله، ولم يكن سوى ورقة نقدية من فئة 100 دولار فقط. قبضت عليها بقوة خوفا من فقدها أو غضباً وأسى. لم أكن أملك سوى هذا المبلغ الزهيد جداً. صعدت إلى جناحي في الدور الخامس، وأنا أترنح يمينا وشمالا، كمن أثقل في الشراب، كمن يفر من الواقع الصعب إلى واقع أكثر ألما، كمن بكى لسنوات ولم يعد يجد في مقلتيه دموعاً. تمددت على السرير الوثير، يا للعجب! كان قبل ساعات مريحا رطبا باردا، لكنه الآن عبارة عن أشواك تنهش جسدي، تنهش روحي، وكل كياني. نهضت إلى الشرفة التي تطل على نهر مائي كبير، عجبا! كم كان الهواء عليلا قبل ساعات ورطباً وحنوناً، كيف تحول الجو برمته إلى الاختناق والأتربة والحر الشديد! عجبا كم كانت هذه العاصمة بحركتها الدائمة المستمرة وزحامها الرهيب، والأصوات التي لا تهدأ أو تصمت، تستهويني وأطرب لها، وأميز أدق المشاهد وأسجلها باعتبارها قيمة إنسانية! الآن أنظر إلى كل شيء بسواد كبير، أينما جلت بنظري لا أشاهد سوى التهافت والقسوة والتعارك، بعضنا مع بعض، عندها أدركت أنني الآن عبرة إنسانية، فدمعت عيني وأصبحت في حالة قاسية، في هذه اللحظات سمعت طرقات خفيفة على باب غرفتي. توجهت نحوه بتثاقل وبطء كبير، وبعد فتحه فوجئت بفتاة ممشوقة القامة نحيفة الخصر، ذات عينين مستديرتين وملامح ناعمة تقف أمامي، قالت: مرحباً.. للوهلة الأولى اعتقدتها قد أخطأت العنوان..

أجبتها: (مرحبتين).. ثم ساد صمت.. كنت أنتظر اعتذارها بأنها قد أخطأت عنوان الغرفة المقصودة، لكنها قالت:

- ألم تعرفني ؟..

- لا لم أعرفك.. (هكذا أجبتها)

- أنا الضابطة منى..

- أعتذر بشدة فلم أعرفك.. لم أشاهدك سوى بالبذلة الرسمية.. أنت الآن مختلفة تماما، أهلاً وسهلاً تفضلي. كانت هي النقيب التي سجلت لها ورقة المسروقات عندما جلست في الصالة. توجهت إلى البوفيه، وهناك وجدت ما تضعه عادة الفنادق الفخمة، وليس بالضرورة أن يكون ملائما، فحادثة سرقتي جعلتني بالكاد أتنفس، عدت إليها. ابتسمت وأعدت الترحيب بها.. ثم عاد وساد صمت للحظات، لكنه لم يطل كثيرا، فمجرد أن بدأ سؤالها الأول انهال الحديث العفوي:

- هل تنتظر أحداً؟

- أبداً أبداً

- هل هذه أول مرة تزور فيها بلادنا؟

- نعم إنها أول مرة.

- هل أعجبتك؟

- أتمنى أن تعجبني!.. لكن الظروف لا يبدو بأنها تساعد.

- جئت لأخبرك بشيء مهم قد يساعد في قضيتك، وقد يساعد في تحميل الفندق مسؤولية السرقة.

- ما هو؟

- أين جواز سفرك؟

أحضرته لها من جيب المعطف. نظرت فيه لوقت.. ثم قالت:

هل تعلم أن الكثيرين جدا يتمنون الحصول على الجواز الأخضر؟

ضحكت وأجبتها:

- هل تعرفين أحد هؤلاء الكثر ممن يرغب بشرائه مقابل قيمة تذكرة العودة للوطن..؟!

- لا لا هذا الجواز ليس رخيصاً إلى هذه الدرجة .. وسأثبت لك هذا قريبا. لكن الآن انظر هنا.

- ماذا؟

- هل تشاهد.. ختم المطار على دخول جهازك الحاسب الآلي وكاميرا الفيديو، مسجل: شوهد يحمل كمبيوتراً شخصياً محمولاً وكاميرا فيديو.

- وماذا قد يفيدني هذا؟

- في الغد، وبعد أن يوقع مسؤولو الفندق على أقوالهم رسميا، وعلى نفيهم أنهم شاهدوك تحمل كاميرا فيديو وجهاز حاسب آلي، أخبر الضابط بهذه المعلومة، فقد تساعدك في إثبات صدق أقوالك.

- شكرا منى، أتمنى أن تكون هذه المعلومة ذات فائدة.

- هل تسمح لي بسؤال آخر؟ واعذرني على أسئلتي المتواصلة..

- طبعا طبعاً.. تفضلي من دون أي اعتذار

- يبدو لي أنك متأثر من هذه السرقة، وأنت تسكن في جناح فاخر في فندق خمس نجوم، فأين أسرتك؟ لماذا لم تتصل بهم لتخبرهم بما حدث؟ أين إخوتك؟ أين هم أصدقاؤك؟

كان واضحاً تعثري في الإجابة، وكان واضحاً عدم معرفتي من أين أمسك بحبلها، لذلك، وبعد أن لاحظَت هذه اللعثمة التي بدت عليّ، نهضت وطلبت الانصراف، وقالت: «لا تشغل بالك كثيرا، إذا شعرت برغبة في الإجابة في أي وقت ستجدني أستمع بإصغاء كبير»، ثم غادرت. أتساءل الآن: «هل من المعقول أنها جاءت فقط لتقول لي هذه المعلومة؟ ثم لماذا؟.. قد يكون لديها

سبب آخر أجهله؟ إن حادثة سرقتي جعلتني شديد الحساسية من الغرباء، وأفسر تصرفاتهم تجاهي بأنها تضمر سوءاً». في الصباح الباكر فوجئت بها تحضر بزيها الرسمي وتأخذني معها. حقيقة فإن قدومها بخر كثيرا من مخاوفي، لكن بعض تساؤلاتي ما تزال عالقة في ذهني، لم أتحمل ضغط هذه الأسئلة وذاك الصوت الخافت في رأسي الذي يقول: «أظهر لها مخاوفك وتمعن في ردة فعلها، تصرف هكذا لكي لا تندم»، عندها تمالكت نفسي وأنا متوتر وسألتها: «ما هو سر هذه الحفاوة والحرص؟.. هل علموكم في كلية الشرطة فنون العلاقات الاجتماعية مع ضحايا السرقات؟».. حقيقة تمنيت لو أنني صمت تماماً، ذلك أنه ظهر على وجهها ذهول كبير، وكأني قد وجهت لها صفعة. جعلت أقول في نفسي: «تباً لي حتى صيغة السؤال سيئة»، وعندما عدت لذلك الصوت في رأسي أسمعه يخلي مسؤوليته: «لم أقل أن تبدأ تساؤلك هكذا». لكن منى لم تجبني ولم ترد علي في تلك اللحظة التي ظهر على وجهها الغضب. توقفت بسيارتها وقالت: «يمكنك أن تنزل الآن»، وعندما وجدتني صامتا رفعت صوتها مع ابتسامة: «تفضل بالنزول يا أخي»، لكنني لم أجبها. حقيقة بأني كنت أرغب أن أقول لها: «آسف جدا أنا بحاجة لك»، لكن كبريائي يمنعني، وصوت داخلي آخر يدفعني أن أسارع بالاعتذار، وآخر يدفعني للنزول وصفع الباب في وجهها بغضب. وبينما أنا أعيش هذه الحالة الداخلية من التناقض، فوجئت بها تفتح الباب وتنزل من المركبة، ثم عادت ونظرت إلي وقالت:

- أنا أتضور جوعاً، هل تصدق أنني كنت في زيارة مساء البارحة ولم يقدم لي ذلك الرجل خلالها حتى كوب ماء!.. يا أخي يوجد أناس (غريبون) بشكل!!

كان واضحاً أنها تقصدني وتريدني أن أضحك، ثم أضافت: هيا ألا تريد تناول طعام الإفطار.. لا تخف إنه على حسابي؛ لأنني جائعة أكثر منك.

عندما نظرت جيدا وجدتها قد توقفت أمام أحد المطاعم الشعبية. كان واضحاً عليّ الارتباك. قد يكون من أثر الجوع أو تشتت الأفكار، لكنني كنت

في تلك اللحظات ضائعا تماما، وفي دوامة عنيفة من التناقض وعدم الفهم. عندما دلفنا إلى المطعم قدمت للنادل طلبات الإفطار، وما إن وضع الطعام أمامي حتى التهمته في لحظات. وفي حركة لم أشاهدها أشارت للنادل بطلب آخر. عندما صعدنا إلى السيارة قالت وهي توجه كلامها نحوي: «هكذا أفضل، الدنيا لا تستحق الغضب». كنت مبتسما: «إن الجوع مؤلم، خاصة إذا لم تتعود عليه، بل إنه يفقدك حتى التركيز والتعاطي بإيجابية مع الآخرين». قد تكون فهمت هذا، لذلك لم تعر كلماتي عن سر حفاوتها بي أي اهتمام.

أنزلتني قبل الوصول إلى بوابة قسم الشرطة، وناولتني ورقة فيها اسم الضابط المسؤول عن التحقيق وموقع مكتبه، وورقة نقدية بـ 50 دولاراً، وقالت: «هنا سنفترق، وسنلتقي بعد الظهر في الفندق». رفضت أخذ النقود. قالت: «إنها للتاكسي الذي ستركبه في طريق عودتك». أخبرتها أن معي بعض النقود.

توجهت إلى مكتب ضابط التحقيق، حيث وجدت محامياً يمثل الفندق، ولم ألمس جديدا، فالفندق ما يزال يرفض الاعتراف بالسرقة، ويكرر روايته بأنني حضرت إلى الفندق بحقيبة صغيرة واحدة فحسب، ولم أكن أحمل أي أغراض أخرى، نفذت نصيحة منى بدقة، فقلت بعد توقيع محامي الفندق على أقواله في محضر التحقيق: «إنني تذكرت شيئا قد يفيد في القضية»، فقال الضابط: «ما هو؟»، أخرجت جواز سفري، وبعد التدقيق في صفحاته المختومة عليها بيانات الحاسب الآلي والكاميرا الفيديو، قال ضابط التحقيق وهو ينظر إلى محامي الفندق ويبتسم: «إنها إضافة مميزة».

عدت إلى الفندق سيراً على الأقدام لمسافة قد تزيد على السبعة كيلو متراتٍ، ولأول مرة أشعر أني ضمن الناس المهدودة المتعبة. كنت أسير وسط الزحام البشري والسيارات المكتظة، سابقاً كنت أخاف من مثل هذه الجولات، وأخاف السطو والسرقة، أخاف الاحتكاك بهؤلاء البسطاء. اليوم انعدمت حواجزي وتلاشت مخاوفي، ذلك لأنني أصبحت مثلهم تماما، لا أملك ما أخاف عليه. أهم ما في الموضوع أني اكتشفت سر خوفي وخشيتي من هؤلاء

التعساء، المتمثل بعدم الخوف على حياتي، بل على ما أملكه من مال.

كان الطريق طويلا جداً، شعرت خلاله بتعب حقيقي، لكنني وصلت إلى الفندق، ومباشرة صعدت إلى جناحي الوثير، الذي يسكنه، للمرة الأولى، بائس مسكين مثلي، يعيش هذه الحالة من الإعياء. ومن فوري استلقيت واستغرقت في نوم عميق.

لم يوقظني إلا رنين الهاتف. كانت منى على الطرف الآخر. فورا أخبرتها أنني ممتن لها، قلت: «إن كلمة شكراً قليلة بحقك». قالت: «حسناً ما رأيك أن أمر عليك هذا المساء لنتناول طعام العشاء سوياً؟»، قلت: «إن هذا كثيرا جداً، وإني أشعر بالخجل». ضحكت وقالت: «إذاً موعدنا بعد الثامنة». كانت منى بالنسبة لي في تلك اللحظات طوق نجاة، وأحسست أن الأمور بدونها ستكون أكثر تعقيدا. بعد تناولنا العشاء سوية وقضاء وقت ممتع على ضفاف النهر الجميل، أنزلتني عند باب الفندق. قلت: «هل تتفضلين بالنزول». نظرت إلى ساعتها وأجابت: «اتركها لوقت آخر. أرغب بالذهاب مباشرة إلى النوم، لكن غدا إذا وصلت مكتبي سأتصل بك». وأنا أسير باتجاه مدخل الفندق توقفت وجعلت أنظر إليها وإلى سيارتها وهي تغادر. يا لها من إنسانة على قدر عال من الأدب والاحترام.

في التاسعة صباحا كان الهاتف يرن، واستمتعت بصوتها العذب. قالت: «يوجد مكان مهم لا بد أن نذهب إليه»، وأبلغتني أنها في طريقها إلي، سألتها: «إلى أين؟»، أجابت: «مفاجأة!». في أثناء انتظاري وصولها نزلت إلى بهو الفندق. عندما تقدم النادل نحوي سأل: «ماذا تشرب؟» قلت له: «إنني مفلس». ضحك وقال: «أهلا بك في نادي الفقراء». ضحكت، لكنه أعاد السؤال وقال: «اعتبرها على حساب أعضاء النادي، احتفالا بانضمام العضو الجديد». فقلت: «لا أريد تخييب ظن أعضاء النادي، ولذلك اجلب إبريق شاي وخمسة من (الساندويتش)»، فضحك وقال: «حاضر». قلت: «أرجوك لمرة واحدة تخلوا فيها عن برتوكولات الثراء عندما تقدمون طعام الإفطار هذا بالذات.

أرجوك اجعل صحني يضج بالمربى والجبن والخبز المحمص». ضحك وقال: «من عيوني». بعد لحظات عاد وطلب انتقالي إلى المطعم، سألته هامساً: «هل أنت متأكد؟»، ضحك وقال: «بكل التأكيد». عند باب المطعم رحب بي أحدهم وأجلسني على طاولة فيها إفطار متكامل. كنت أفكر أن لا أقتصر على تناول الإفطار وحسب، بل أن أحسب حساب الغداء الذي سيحل بعد ساعات قليلة، بل أيضا طعام العشاء، لذلك جعلت آكل وآكل. كانت منى تبحث عني عندما وصلت إلى الفندق، حتى وجدت من أخبرها بوجودي في المطعم. رفعت رأسي فإذا هي واقفة تضحك. قالت: «هل تتصور بأني سأتركك تموت من الجوع يا أخي ارحم نفسك، فقد زاد وزنك منذ وصولك!». أخبرتها أني أتناول طعام ثلاث وجبات وسيندم من في هذا الفندق على تعاطفهم معي». أمسكت بيدي وقالت: «إن الوقت ضيق، هيا بنا». سألتها «إلى أين؟» أجابتني: «ستعرف بعد قليل وستحب هذا المكان». عندما صعدت إلى مركبتها، رفعت الصوت الخافت الذي كان ينبعث على استحياء من المسجل، كان الفنان طلال مداح، صوت الأرض، يشدو بأغنيته الشهيرة «أغراب»....

أغراب في رحلة ليالي العمر

أغراب في دنيا العيون السمر

أغراب والفرحة حوالينا

أغراب والدمعة في عينينا

ماشيين في سكة الأحباب

ماشيين وفي كل خطوة عذاب

أغراب أغراب

غربتنا غربة ليل يبحث عن نجومه

دمعتنا تروي الليل وتبدد همومه

وتبقى الدموع لينا تطفي الأمل فينا

ماشيين في سكة الأحباب ماشيين وفي كل خطوة عذاب

أغراب أغراب

شاهدت منى تأثري البالغ، شعرت بيدها تهز كتفي بحنان وهي تقول: «أعذرني فلم أعرف أنك تملك مشاعر رقيقة لهذه الدرجة، هل نسيت يا أستاذ ما قلته لي صباح أمس بكل قسوة: هل يعلمونكم في كلية الشرطة فنون التعاطف مع ضحايا السرقات؟»، ضحكت وجعلت هي أيضا تضحك وقالت: «هل يمكن أن تنزل الآن؟». رفعت رأسي، كانت متوقفة أمام سفارة بلادي، وتلك السارية التي يرفرف عليها العلم الأخضر المسطر عليه كلمة الحب والعالمية، صدقت منى، لقد شعرت بالحنين إلى وطني وشعرت بالأمان، وصلت إلى نافذة المبنى، كان هناك موظف ناولته جواز سفري وطلبت مقابلة السفير، فقال: «خير إن شاء الله عسى ما شر؟».أدخلت رأسي من تلك النافذة الصغيرة وقلت: «يا الله ما أجمل هذا الصوت، مضى وقت لم أسمع هذه النغمة التي أعدتها، لكن أرجوك لا تقل راجعنا بكرة !!.. لأنها الكلمة الوحيدة التي ليس وقتها الآن». ضحك وجميع من كان معه من موظفي الاستقبال، وقال يا عزيزي: «لا يمكن أن يقول لك أحد هذه الكلمة وأنت تقف أمام منزلك»، وفتح البوابة، دلفت أنا ومنى إلى هذا المبنى الشامخ كأنه فعلا منزل كبير. الكل مبتسم ، يؤدون عملهم كالنحل بتفان وطيبة نفس. عندما وصلت إلى مكتب السفير طلب سكرتيره أن ننتظر، بعدها بلحظات سمح لنا بالدخول على السفير، سلمت عليه بحرارة بالغة حقيقية حتى إني احتضنته، شعرت بالحنان والأمان وهو يضحك، عندما جلسنا سردت عليه تفاصيل ما حدث لي، جعل يضحك! ونظر نحو منى مبتسماً وقال: «إن مثل هذه الأمور تحدث»، ثم كتب ورقة صغيرة وناولني إياها وقال: «اذهب إلى مكتب الخطوط، وسيتم قص تذكرة مجانية لك لتعود إلى الوطن»، ثم أخرج من درج المكتب ظرفاً وقال: «تفضل هذا المبلغ لتيسير أمورك حتى يحين موعد سفرك، وستتابع السفارة باقي القضية،

اطمئن تماما»، ثم طلب من سكرتيره أن أوقع على أوراق خاصة لمن هم في مثل حالتي.

عندما خرجت وبصحبتي منى وأنا في سيارتها، فتحت الظرف ودمعت عيناي عندما وجدت أن في المغلف مبلغ ألف دولار. قالت منى: «هل عرفت لماذا الكثير يتمنون الحصول على الجواز الأخضر؟!!»

قضيت ثلاثة أيام جميلة بعد لقائي بالسفير، في اليوم الرابع كنت في صالة المغادرة في المطار، وكانت منى تودعني. عندما أخرجت ورقة نقدية من فئة 100 دولار جعلت تضحك وأنا أضحك بأصوات مرتفعة. الكل سمعنا، وضحكوا لضحكنا، فقد كانت المائة دولار مهترئة وممزقة من كثرة لفها ومسكها باليد. كانت منى دائما تعلق وتقول: «يا أخي ارحمها». في هذا اليوم ناولتها المائة دولار. قلت: «اكتبي عليها شيئا». أخذتها ودونت: «شكرا للأقدار الجميلة». ابتسمت وقلت: «هل تصدقين إنها فعلا كانت لحظات جميلة جداً وعشرة أيام رائعة، ورحلة عجيبة. استمتعت بتفاصيل لا يمكن أن توضع على جدول أي رحلة سياحية في العالم». نظرت نحو عينيها وقلت: «أنت لست بحسناء! أنت ملك من السماء»..

وأنا في وطني الحبيب أرسلت سفارة بلادي جهاز حاسب آلي جديداً وكاميرا فيديو جميلة، وشيك بـ 4000 دولار تسلمتها من الفندق الذي ثبت أن أحد عامليه قد قام بسرقتي.

لم تنتهي قصتي إلا بعد استيقاظي من النوم، ويا للهول فقد كان بحق حلماً جميلاً، على الرغم من أنني لطالما تعودت على الكوابيس!.

فرصة!!

كم من الفرص تعرض نفسها علينا ولكننا لا نلحظها !!

أنطوان تشيخوف
من كبار الأدباء الروس

لم تكن منعمة وثرية وحسب، فالذي وهبها المال أعطاها الجمال أيضا، لكنها كانت مفعمة برقة بالغة تجاه الآخرين، ومحملة بإنسانية واضحة.

لذلك كانت تحاول أن تخفف من توتري، وخشيتي من الحياة، واستنهاض الحماسة وهي تقول: «كل إنسان، في العالم.. لابد أن تمر به فرصة. البعض تأتيه فرصتان، وآخرون وهم قلة تأتيهم أكثر من ثلاث فرص... لكن لابد.. لابد.. أن تأتي للجميع فرصة واحدة على الأقل».

ثم صمتت قليلا قبل أن تعاود الحديث قائلة: «المشكلة ليست في إهدار الفرصة عندما تسنح لك، بل المعضلة الكبرى في أن الكثيرين لا يعلمون متى جاءت؟ وكيف فقدوها؟».

بالنسبة لشخص مثلي مهترئ الأعصاب لم يشغله قدوم فرصته نحوه،

لكن ما شغل تفكيره، هو لماذا البعض، وهو قلة، تأتيه فرص متوالية، والمجموع الأكبر من رعاع البشرية تأتيهم فرصة واحدة، وشحيحة؟ بل لا يعلم في أحيان كثيرة حتى عنها، من المسؤول عن هذا الجور، هل هي السماء؟ أم أيضا الإنسان؟

منذ أكثر من أربعين عاما وأنا أنتظر الفرصة أن تأتي، مستغربا ألا أستحق إلا واحدة، وقد كنت أظن أنها ستتوالى علي، لكن، وكما يبدو فرصة وحيدة، أصبحت بمرور الأيام أتمناها، أعظمها، ومن ثم أقدسها.

أصبحت مطالبي تكبر معها، فعندما تحين سأنتهزها لتنشلني من بؤرة الركود والتردد، وتنقلني إلى حياة الفرحة والسعادة، فرصة تقذف بي بعيدا عن أوجه البؤس والدمار، وتذهب بي إلى عالم من الاخضرار والأنهار الرقراقة، فارتوي بسببها من الراحة والحبور من دون كلل أو ملل، بل أفر بوساطتها من عوالم مخيفة تحاصرني منذ ميلادي، إلى عالم واحد مريح وبسيط، من دون تعقيد في علاقاته، وترتيب في صداقاته، ستذهب بي إلى عالم واحد من دون هالات، وبذخ وكذب.

عندما رفعت رأسي نحوها كنت ألهث كمن خرج لتوه من سباق جري، عندما بدأت أنفاسي تهدأ، قالت وهي تبتسم ابتسامة ملؤها الاستغراب والذهول: «اطمئن أتوقع أن تكون الفرص والحظوظ بالنسبة لك كثيرة، لكن من المهم أن تركز، وأن تتعلم المشاهدة، والتأمل فيما يدور حولك وبالقرب منك». عدت مباشرة إلى موجة جديدة من الهذيان العقلي، أي تركيز وأي مشاهدة. ماذا تقصد بالضبط ؟!. في الحقيقة إنني دقيق في كل أمور الحياة لدرجة أصبح هناك من يصفني بالمعقد، لكن ليست المعضلة تتعلق بالتركيز، إنني أتذكر تلك المقولة: «يكون الحظ إلى جانب المجانين، والفرص النادرة للبشعين»، ولا أعلم هل وصلت إلى درجة الجنون حتى أستحق بعض الحظ الجيد، أم تراني بشع حتى تزورني واحدة من الفرص النادرة، كم يجيد عقلي

تعذيبي، إنه يسألني عن البشاعة، هل هي بشاعة الوجه؟ أم بشاعة الأخلاق؟ أم تراهما الاثنان معاً ؟ لا تساورني الشكوك في أنني أتمتع بدرجة لا بأس بها من البشاعة، سواء في المظهر أو الجوهر، وإن كنت اليوم أتمنى أن تكون منتشرة وواسعة الوجود في حياتي حتى تنهال الفرص علي.

نظرت نحو هذه السيدة التي ما تزال تحافظ على وهج ابتسامتها، وأنا أتمعن، بكل لصوصية، في معالم تلك العيون، قائلا لها: «إنني أعرف مدى حظوظي، إنها معدومة كقول الشاعر:

إن حظي كدقيق فوق شوك نثروه... ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه

صعب الأمر عليهم ثم قالوا اتركوه... إن من أشقاه ربه كيف أنتم تسعدوه

تستطيعِين القولِ إن هذا البيت الشعري ينطبق تماما علي».

شعرت بنظراتها في ملامح وجهي المتبلد، ثم إنها قالت: «كن متفائلا ستحصل على فرصتك، من يعلم قد تكون فرصتك بين يديك الآن!.. وقد تأتيك في يوم القيامة».. ثم عادت للصمت وهي تبتسم ابتسامة ساحرة، لكن جمالها الأخاذ ورائحة عطرها الفواح.. لم تمنع ذهني المتهالك أن يعود للصخب... صحيح قد أجد فرصتي يوم القيامة عندما يأمر الرب بقذفي في النار، فأتمكن من الهروب من بين يدي ملائكة الشر، والدخول وسط الجموع المهيبة.. في تلك اللحظات يقبض الرب بيده قبضة من هذه الجموع ويلقي بها في الجنة، وقد كنت معهم.. في تلك اللحظات سيبتسم الرب، سأنزل رأسي، وأقول لقد أعطيت فرصتي، ولكن ماذا عن المعذبين، الفقراء، المظلومين، الحائرين، والهائمين، ماذا عن أم حسن جارتنا التي توفيت وهي تحن لطفلها، الذي خطفه من بين يديها زوجها بعد أن طلقها، وهي المعدمة الجائعة، ذات العيون الحائرة.. أنا متأكد أنها لم تمنح أي فرصة لها، وأخشى أن تذهب للنار، لأنني شاهدتها تسرق بعض الملابس والطعام لصغارها.. وأخشى أن تُصلى جحيما

لأنني أبصرتها تبتسم لرجل غريب وتدخل منزل رجل آخر بعيد، وأخشى أن تقذف في زمهرير لأنها معدمة ومجرمة.

قطع حبل أفكاري صوت هذه السيدة وهي تقطب جبينها وتقول بغضب: «أعتقد أنك فقدت الآن فرصة من فرص الحياة الشحيحة، ثم إنها غادرت سريعا... سريعا جدا حتى من دون أن تودعني»!!.

ليلى في اليونان!

نسعى إلى إثارة الشكوك حول الذين لا نطيقهم!

فريدريك نيتشه، كتاب: (إنسان مفرط في إنسانيته)

لكن لماذا أنا هنا في غرفتي أجول فيها ولا أنام، لعل حادثة هذا المساء قد أثرت في نفسي، نعم إنه الطفل الصغير الذي كان يعمل نادلا في المطعم البحري، صورته وبراءته لا يمكن أن تغادرا ذهني، ولو ظللت هنا سأظل أجتر هذه الأفكار حتى الصباح. لقد اقتربت من الشرفة في الفندق الجميل الذي كان يطل على البحر، الهواء منعش جدا، لقد قامت بحجزها صديقتي سارة، إنها تحظى باحترام هنا، لعل سبب هذا كونها تحمل الجنسية الإيطالية، هي عربية الأب إيطالية الأم، تحن إلى وطنها الأصلي لكنها تحب إيطاليتها، لقد حصلت على هذه الغرفة بسعر رمزي وبخس، والسبب أنها تعمل في التلفزيون المحلي الإيطالي، وقد وعدتهم أنها ستحضر لإعداد برنامج عن اليونان، وأنها ستبرز هذا الفندق الأثري خلال الريبورتاج التلفزيوني. كنت عندها قد وصلت إلى باحة البهو، حيث اقترب أحد العاملين في الفندق، يسألني:

إذا كنت أرغب أن يقوم بإيقاف تاكسي؟ شكرته وخرجت إلى الشارع الممتد، وتوجهت نحو الضفة الأخرى حيث البحر، وبمحاذاته ظللت أسير، تعصف بي الأفكار كمد وجزر، كأمواج كبيرة وأخرى صغيرة، كان الجو منعشاً والهواء باردا باستحياء، وصوت البحر كأنه سيمفونية عجيبة لم تعزف قط، توقفت عند الباب الخشبي للمطعم البحري الذي قادتني إليه الخطى مرة أخرى، دلفت إليه، إنني أحب عصير الليمون، وقد كنت بحاجة إليه لعله يخفف توتري وتعبي وسهادي، كان المطعم خاليا إلا من رجل بصحبته امرأة شقراء يجلسان على الطاولة نفسها التي كنت أجلس عليها أنا وسارة وعبير في الساعات الأولى من هذا المساء. كان الرجل محتداً جدا، والمرأة ترد عليه بحدة أكبر. ضحكت.. قلت: «في الغد سأقوم بشراء هذه الطاولة ورميها في البحر، إنها شؤم على كل من يجلس عليها!»..

اقترب مني أحد العاملين وقال بلغة مكسرة: «إن الذي يزورنا لابد أن يعود لنا، لكننا لم نتوقعك بهذه السرعة». ضحكت وسرت خلفه، حيث مضى نحو البحر مباشرة. أدرك جميع من في هذا المطعم أنني اعشق البحر، بعدما حدث في بداية هذا المساء. عندما جلست طلبت عصير ليمون. قال: «سأنظر إن كان موجودا، فالوقت متأخر الآن!». هززت رأسي من دون أن أجيبه، فقد كانت نظراتي مصوبة نحو النادل الصغير، حيث كان يمسح بعض الطاولات بعد تنظيفها وغسلها في الزاوية الأخرى من المطعم. رجعت بذاكرتي إلى بداية هذا المساء، عندما حضرت بصحبة سارة وعبير لتناول العشاء على تلك الطاولة قادمين من المطار.

- قالت سارة: أين نجلس؟

- قلت: إنه من الجميل أن نجلس بجانب البحر..

- ردت عبير: أنا أقترح أن نجلس هنا، فالمكان أخضر وبجانب الناس.

- قالت سارة: نعم صحيح.. ما رأيك؟

- أجبت: إنني أفضل أن نجلس هناك بجانب البحر..

كان النادل الصغير ممسكاً بقائمة الطلبات، فقال: «نعم صحيح سيدتي، إن المكان هنا ممتع جدا». وكان يتجاهلني بوقاحة متناهية..

فقلت بهدوء: المكان هنا قريب من صخب السيارات وعوادمها المميتة، اتركونا نقترب من البحر وهوائه العليل النقي.

رد النادل الصغير، دون حتى النظر نحوي: أبداً هنا المكان نظيف جدا والأشجار جميلة، ولن تسمح لعوادم السيارات بالوصول إليكم.

اشتطت غضبا وصرخت به: أنت ما هي وظيفتك هنا بالتحديد ؟!، هل ترغب أن أخبرك ؟! حسنا.. أنا أخبرك، أنت مجرد عامل حقير، تقدم طلبات محددة.. لا يسمح لك بالتحدث في موضوع لا شأن لك به، هيا اغرب عن وجهي.

سارة وعبير كانتا مشدوهتين.. أصابتهما حيرة كبيرة، بعد مضي بعض من الوقت قلت: «إنني أرجو أن لا أكون قد سببت لكم إزعاجا»، لكن الصمت كان مطبقا في الأرجاء، سوى من بسماتي اليتيمة، قطع هذا الصمت صوت سارة وهي تقول إنها مرهقة ولا تشعر بجوع، ثم ابتسمت قائلة: «إننا جميعا نشعر بالتعب، وهذا اليوم الأول لوصولنا».

قالت عبير موجهة كلامها نحوي: لا تنسي أننا انتظرناك في المطار لأكثر من أربع ساعات...

كانت سارة قد وصلت من روما، وعبير جاءت من لندن، وأنا قدمت من الرياض. نسقنا جيدا لهذه الرحلة، وحددنا المواعيد بشكل ممتاز، كانت عبير ترغب في أن نقضي الصيف في لندن لتوفير مصاريف السكن، لكننا رفضنا، كنا نحب أن نغير الأماكن ونشاهد شيئا جديدا، وكنا جميعا لم نشاهد اليونان من قبل. عند نزولي من سلم الطائرة كانت تقف في ساحة المطار

بقرب سلم الطائرة مجموعة من السيارات الفارهة، تستقبل بعضاً من ركاب الدرجة الأولى، عندما وطأت أرض هذه البلاد الجميلة فوجئت بعبير واقفة بقامتها الممشوقة أمام سيارة خضراء صغيرة، وسارة معها تضع نظارات سوداء باتجاه مقود السيارة. توجهت نحو عبير وقالت: «أرجوك لا تفسدي البرتوكول». نظرت باتجاه سارة، فوجئت بها تمسك معصمي وتقودني إلى المرتبة الخلفية، كانت السيارة بلا أبواب خلفيه (سيارة سبور)، فكان الحيز ضيقا يمنع صعودي، فدفعتني بقوة وارتطم رأسي بسقف السيارة، وركبت عبير في الأمام. قالت سارة: «أهلا وسهلا، أخيراً وصلت؟».

ناولتني عبير الجوال قائلة: «اتصلي بالسفارة السعودية، أبلغيهم أننا نختطفك، لا بد أن يدفعوا فدية مليون دولار، وأن يتم قبول شقيقتي بجامعة الملك سعود». أما سارة فقد قالت: «عليهم أن يسمحوا لي بزيارة المملكة من دون محرم». ضحكت من أعماق قلبي، كانت مفاجأة كبيرة جدا. لم تتح لي الفرصة لمعرفة كيف تمكنوا من إدخال السيارة الصغيرة المهترئة إلى ساحة المطار، لكن بكل تأكيد أن الأوراق ذات اللون الأخضر لها مفعول سحري!

توجهنا نحو المطعم لتناول العشاء، ولنسمع أخبار بعضنا، لكنهما اعتذرتا عن إكمال طعامهما، وغادرنا باتجاه الفندق، حيث ذهبت كل منا إلى غرفتها. لقد فسرتا تصرفي نحو النادل الصغير بكونه تعالياً وتكبراً. كنت غارقة في الأفكار، حاولت أن اشرح لهم أن الإنسان يمر بحالة من الضعف الأخلاقي، لكن هذا لا يعني كونه سيئا دوما. حاولت أن أقول لهما إنكما أكثر الناس معرفة بي!.. كانت إجاباتهما ابتسامات صفراء سرعان ما تختفي وراء الصمت العجيب. كنت غارقة في الأفكار، وحزينة جدا.. لم يقطع تلك اللحظات التي عشت فيها سرداً ذهنياً عقلياً مضنياً لتفاصيل ما حدث سوى صوت النادل الصغير نفسه يقول لي: «لقد وجدنا لك عصير الليمون»، لكنه سرعان ما أضاف قائلا: «ماذا بك؟ هل تعانين من ألم؟». أجبته: «لا.. لا..». وضعت يدي على جبيني.. كنت ساخنة جدا.. ويتصبب العرق مني..

- ما هو اسمك ؟.. كان هذا هو سؤالي الأول نحوه.

قال لي اسما لم افهمه ولم اعد أتذكره. رفعت رأسي نحوه لأجده ينظر بذهول نحو الكاميرا الفيديو التي كنت أحملها.

- هل أعجبتك ؟.. (هكذا سألته ثانية)..

- إنها خرافية.. كم ثمنها؟

- تقريبا: 900 دولار

- هل تعلمين كم أحتاج من الزمن لشراء مثل هذه الكاميرا ؟

- كم ؟

- ليس أقل من ثلاثة أعوام، على أن لا اصرف من مرتبي فلساً واحداً.

كنت خلال هذا الحوار البطيء الصعب، أشعر بإعياء وتعب، لكنني قلت له: «هل أطلب منك خدمة؟»

- نعم تفضلي.. (هكذا أجابني)

- أرغب أن تقوم بتصويري أمام البحر.

- هذا يسعدني خاصة وقد علمنا جميعا أنك تعشقين البحر بجنون، لكنني مع الأسف لا أجيد استخدام هذه الكاميرا الثمينة.

بدأت أشرح له طريقة التصوير ووظيفة كل زر من أزرارها العديدة، ثم بدأ يصورني وأنا أشرب العصير، لكنه أوقف التصوير واقترب مني قائلا: «إن وجهك يتصبب عرقا، لعلك تشعرين بإرهاق». كنت أنظر نحو تفاصيل وجهه الطفولي بعمق، ذلك الوجه المنهك المتعب من آثار العمل المتواصل، أتساءل كيف ترتسم تلك الابتسامة البيضاء الخلابة وتشرق وسط تشققات الآلام الكبيرة في ثنايا وجهه، وكيف لا نرى مثل هذا الهم الفاضح أمام أعيننا!

عندها قلت له: «إذاً أوقف سيارة أجرة إذا تكرمت». وضع الكاميرا على الطاولة قائلا: «في الحال». بعدها بلحظات كان يحاول مساعدتي على النهوض وهو ممسك بكتفي.. ضحكت. قلت له: «إنني لا أزال شابة». قال: «إن حمى هواء البحر لا تحفل بالسن، لكنني متأكد أنها لا تصيب إلا أصحاب القلوب الجميلة». ضحكت بتثاقل قائلة له: «أيها النبيل الصغير، هل أفهم أنك قد سامحتني؟». امتلأت عيونه بالدموع وقال: «نعم بكل تأكيد أسامحك». غادرت باتجاه سيارة الأجرة، لكنه ما لبث أن لحق بي قائلا: «الكاميرا.. لقد نسيت الكاميرا». قلت له: «إن صورتي بها ألا تذكر! لابد أن يبقى معك تذكار». دهش تماما وفتح فاه وعينيه باستغراب كبير، وأردفت: «إنها هديه أقدمها لك يا صغيري العزيز!!»

أما الآن فإن النادل لم يتمالك نفسه، حيث شرع بالتعبير عن حاله بالبكاء. الأطفال في جميع أرجاء العالم يشتركون في هذه اللغة. طلبت من سائق الأجرة أن يذهب نحو المطار فوراً. لم أصعد إلى غرفتي في الفندق. لقد طلبت أن يتم إنزال حقيبتي، وسددت فاتورتي وأنا جالسة في المرتبة الخلفية للتاكسي، ثم وضعت رسالة قصيرة من نسختين لصديقتيّ: «ليس بالضرورة أن أكون سيئة بهذا القدر!.. كانت اليونان جميلة، لكننا لم نكن كذلك، لقد تعثرت منذ البداية ووقعت وحيدة كما كنت دوما»..

عندما وصلت المطار كانت الشمس بدأت في الشروق. طلبت من موظف الحجز أول رحلة متوجهة إلى الرياض.

- أجابني: لا يوجد سوى مساء الغد..

- حسنا أول رحلة لأي عاصمة خليجية.. (جعل ينظر في جهازه).

- توجد رحلة تغادر بعد نحو أربع ساعات إلى العاصمة العمانية مسقط.

- «حسنا. أرجوك احجز عليها»، ومن مكاني قطعت التذكرة وتوجهت إلى صالة المغادرة، وأنا أجر الخطى بتثاقل كبير، أترنح في كل اتجاه. وضعت

المعطف الذي كنت أحمله على الكرسي، ووضعت حقيبتي وجهازي الكمبيوتر الشخصي كوسادة، ثم أسندت رأسي إليها لأستغرق في النوم. كانت الأحلام بل الكوابيس تنتابني كأنها فيلم ممل طويل. شاهدت النادل الصغير سعيدٌ جداً بالكاميرا. لقد باعها بثلاثمئة دولار. كنت أسعل بكثرة، اقترب مني أحدهم، أسمعه برقة ليست غريبة علي يقول: «تباً لك هل توقعت أن تفري بهذه السرعة ؟! ألغينا المليون دولار لكن على الأقل اقبلوا شقيقتي في الجامعة».. كنت مرهقة من الحمى التي داهمتني بحماسة. سمعت صوتا أنثويا آخر يقول: «لن تفلتِ حتى تتحقق مطالبي بإعطائي تأشيرة دخول إلى السعودية». كنت أشعر بيد سارة على جبيني، ويد عبير في يدي، كنت مبتسمة، فتحت عيني بتثاقل كبير وجلت بنظرات زائغة وضائعة. الصالة الكئيبة وجدت فضاء كبيرا، وهدوءا آخر مميتا، كنت للحظات قصيرة أعيش حلما... ولا شيء آخر!

الحيـــاة

1

ذهلنا من خصام الأبناء، كل يريد أن يرعى الأب العجوز ويستضيفه، كل كان يتحدث بشغف وحب وحنان... ذهلنا من ثروة الأب وعقاراته!

2

ليست المشكلة في قسوتنا، وجمود مشاعرنا، وتعالينا.. المشكلة الفعلية عندما ندعي أننا نتمتع بحس إنساني!

3

كان في عيوننا ألف تساؤل واستفهام، وعندما التقينا اكتفينا بالنظرات والاستغراب، ثم مضى كل منا في طريق طويل آخر من الفهم الخاطئ والقرارات الظالمة. كم في العمر من السنوات لعلاج اللحظة الأولى.

4

عندما يسأل الطفل، وتجيبه يصدقك بكل جوارحه. عندما يكبر تسأله فلا يجيبك، تطلبه فلا يعطيك، تناديه فلا يستجيب. هل كانت إجاباتك الماضية له خاطئة؟!!

5

من دون مقدمات استيقظت في هذا الصباح؛ لأكتشف أنه مضى من عمري عتيا، لم تساعدني ذاكرتي في معرفة كيف مضى عمري بهذه السرعة؟ وكيف سارت الأيام بكل هذه الخفة؟ لكن الشيء الوحيد الذي آلمني وبشدة عدم تذكري آخر مرة انسكبت فيها دموعي. لكنها اليوم، وأنا أتحسسها على وجنتي، أشعرتني أنها تقوم بوظيفة نبيلة تجاهي، حيث غسلت قلبي، وأيقظت الأمل وأشعلت الحياة.

امرأة لا تبكي

1

لم أبك بسبب قوة الصفعة التي تلقاها خدي، لكن بسبب ألم القسوة التي ظهرت في عيون رفيقي!

2

طالق، طالق، طالق.. انتهت قصة الصبر والخوف والصمت، لتبدأ قصة الشك والحبس والإغلاق...

3

في نعومة أظفاري تعلمت أن أفكر في فارس الأحلام، وأن ألونه وأشكله، ثم أتمناه، كبرت قليلا ثم تعلمت أن أسجد لفارس الأحلام وأقدسه وأمجده. أصبحت يافعة فتعلمت الصبر على صفعاته وركلاته.

4

كان أبي يقول: لن تبكي وأنا موجود، في كل مساء أتلقى تعازي الأشباح والأوهام. وأسمع الشياطين تضحك وتقول: لا يوجد إنسان لا يموت!

5

في جميع العالم استعبدت المرأة بوساطة قوة الرجل التي تلاشت تحت سطوة العلم. هنا استعبدت المرأة بوساطة العادات، التقاليد وقوة الرجل... تحت سطوة الجهل.

6

قالت امرأة غربية: أغبط المرأة السعودية، فهي معززة ومكرمة لدرجة أنها لا تقود السيارة، إنهم يعتبرونها جوهرة ثمينة.. ليتك لمرة واحدة تتذوقي تكريم الرجل الذي يبدأ نهاره باللكمات والصفع والركل، وفي منتصف اليوم ينهال بالسباب والشتائم، وفي المساء يمارس الجنس بذاكرة مثقوبة وأنفاس قذرة.. ليتك تجربين هذا التكريم.

7

سرق أطفالي، ولم يشفع لي أنه مجرم سابق ومدمن حاليا، وعاطل عن العمل. لم ينظر إلى شهادة الدكتوراه وثمانية عشر عاما في حقل التعليم. فقد قال القاضي وهو يتجنب رؤيتي: الأطفال مع الأب!! حتى اليوم لا أعلم هل غض بصره عن مشاهدتي تورعا وخوفا من الفتنة، أم خجلا وانزواء...

8

امرأة لا تبكي، لن تجدوها في أي مكان حتى في أجمل أحلامكم أو أسوأ كوابيسكم، بل لن تشاهدوها حتى في يوم القيامة!

9

كذبوا وصدقوا كذبتهم عندما قالوا: «ضع أمام المرأة ملابس جديدة وبعضا من مساحيق التجميل ومرآة، وستعطيك حياتها». كذبوا وصدقوا كذبتهم عندما قالوا: «المرأة لا تساوي شيئا من دون الرجل». وكذبوا للمرة المليون عندما قالوا: بأنها ناقصة تفكير وفهم... ولا زالوا يكذبون، وسيظلون يكذبون..

10

لدينا هل تفكر المرأة لماذا تلبس عباءة سوداء؟ ليتها تسأل عن النص الذي ورد في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف الذي يلزمها برداء أسود. لكن ما فائدة التفكير إذا كان صامتا؟ وما فائدة التساؤل إذا كانت الإجابة حذاء يداعب وجنتيها!!

11

بيننا من يردد أن المرأة متاع؟ ولك أن تفسر مفردة «متاع » وفق ما تريد، فتكون حينا كأي وسادة أو سرير أو كنبة أو سيارة أو دراجة. وإذا أرت فيمكنك تفسيرها بالمتعة تبسط نفسك بها، وتلهو حتى تمل، ثم تلقيها وتبحث عن أخرى رضيت أن تكون متاعاً!!

قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾

سورة الذاريات ، آية 22

أربع ساعات في أبوظبي!

لم أتخيل، في يوم من الأيام، أن تكون نهاية الإخلاص والتفاني في العمل بهذه الصورة السيئة المؤلمة، ولم أكن أتوقع، في أي يوم من الأيام، أن يغمر قلبي كل هذا الحزن والإحباط، كما لم يكن قرار طردي من عملي يحمل أي مسوغ ومبرر، فقد كنت مثابرا أقوم بعملي بإخلاص وجدية، لم أعلم السبب الذي جعل رئيسي يتخلى عني بكل هذه البساطة، ومن دون اهتمام بحالي وظروفي وهو أكثر من يعلم بحاجتي المادية لهذا العمل.

خمسة أعوام منذ أن تخرجت في المعهد التعليمي، فني كهرباء متخصصاً في الوصلات والنقاط الكهربائية، كنت كل يوم اكتسب المزيد من الخبرة والمعرفة، وكان يفترض أن يتم استقطابي ومنحي المزيد من العلاوات لا أن يتم إنهاء عقدي وطردي من دون أي مبرر!

أنقضت أربعة أشهر بالتمام والكمال، ولجنة الفصل في القضايا العمالية في المحكمة ما تزال تنظر في قضيتي من دون أي تقدم يذكر، كلما ذهبت إليهم

أضج من الزحام والاختناقات مع العمالة الآسيوية التي تملأ المكان وتضيق بهم الممرات، أربعة أشهر وأنا لم أجد أي كلمة تعيد إلي ولو حقاً بسيطاً وهو تنفيذ بنود العقد الموقع بيننا.

اليوم أيضا كان شقيقي الذي يصغرني قد عاد من أمريكا، حاملا شهادة متخصصة في هندسة الطاقة، والذي أثار دهشتي واستغرابي، أنه قدم لي مبلغاً من المال وهو يقول: «تحتاج أن تسافر، أرجوك اذهب رتب رحلة سياحية، المهم أن تغادر البلد بضعة أيام، وأن تنسى هذه الأجواء المحبطة». سألته: «من أين لك المال فأنت للتو أنهيت حياتك التعليمية، إنك مجرد طالب حديث التخرج؟» قال: «صحيح كلامك لكنني تمكنت من استغلال وقتي الاستغلال الأمثل، خاصة أن أنظمة الجامعة كانت مرنة وحيوية، فبعد عدة أشهر من التحاقي بها انضممت إلى مجموعة طلابية علمية أسسها أحد الأكاديميين أطلق عليها مسمى (أصدقاء المختبر)، من خلال هذه المجموعة كنت أقوم بمساعدته وأرافقه طوال اليوم تقريبا، وتدريجيا بدأ يعتمد علي ويوكل إلي عدة مهام، بدأت من تنظيف المعامل وترتيبها حتى وصلت لأكون مساعده الأول، وهذا لم يكن مجانياً بل كانت الجامعة تدفع مكافأة ماليه تشجيعية، يتم الدفع المالي كمكافأة غير ثابتة، وبعد فترة من الزمن تحولت هذه المكافأة إلى شبه راتب منتظم». واصل شقيقي حديثه قائلا: «هل تعلم أن وظيفتي متاحة الآن وبراتب كبير جدا؟ والسبب أنني كنت من أوائل المتفوقين، هذا فضلاً عن المميزات الأخرى، مثل السكن والعلاج ونحوهما، ليس هذا وحسب، بل توجد عدة شركات عرضت أن التحق بالعمل لديها قبل أن أنهي دراستي الجامعية».

كنت سعيداً وأنا استمع إلى شقيقي الذي يصغرني وهو يتحدث بجدية، خاصة وأنا أتذكر جيدا تلك السنوات التي مضت قبل سفره إلى الخارج، فقد كان عديم الفائدة يفتقر لأدنى حس بالمسؤولية، فضلاً عن استهتاره وكثرة مشاكله. هذا التحول الماثل أمامي الآن وهذه المعرفة بالحياة تجعلني

احترمه وأنظر إليه بكل تقدير. انشغل بهاتفه الجوال الذي كان لا يكف عن الرنين، ثم غادر المكان، فعدت غارقا في دوامة من الأفكار والحيرة، أسأل أين الخطأ الذي وقعت فيه؟ عندما أراجع مسيرتي التعليمية لا أعلم العيب فيها، فقد أنهيت المرحلة الثانوية بتقدير ممتاز، ثم تمكنت من تطوير لغتي الإنجليزية، مع بخل واضح من جهة عملي في إرسالي إلى أي دورة تدريبية متخصصة. ما زلت أتذكر بوضوح شديد وألم بالغ تصريحات المسؤولين عندما قالوا: «إن المستقبل للمعاهد التعليمية ولخريجيها الفنيين في مجال الكهرباء والإلكترونيات والحواسيب»، بل تأكيدهم بأن خريجي هذه المعاهد سيتخطفهم أرباب العمل والشركات الكبرى، وسيحصلون على مرتبات عالية، عندما أتذكر تلك الحملة الإعلامية الكاذبة التي زجت بي في هذا الوحل، أشعر أن هناك من تلاعب بمستقبلي وبحياتي، وحطم آمالي وحرمني من أن أعيش حياة كريمة عزيزة.

ما أصعب أن تشعر أنك تعيش على هامش حياة لا قيمة أو فائدة لك فيها، وأن العالم من حولك تتسارع خطواته وأنت في مكانك من دون حراك، ما أقسى أن تشاهد أقرانك الذين كنت أكثر تفوقاً وجدية منهم وأكثر مثابرة وعملاً، وقد تقلدوا مناصب ووظائف بمرتبات كبيرة، ليس لسبب سوى أنهم من أسر مخملية معروفة، أو لأن آباءهم يحتلون مناصب عليا.

كم هو حمل ثقيل عندما تشعر أنك في وطن يسير وفق «ابن من أنت؟ ومن أي أسرة تكون؟»، وليس ما حققته وأنجزته، وطن يسير وفق ذهنية المنافع المتبادلة وانعدام حق تكافؤ الفرص، وطن تنعدم فيه الرحمة وتنمو القسوة وتنتشر..

المكان يضيق بي، حتى الطعام لم يعد له مذاق ورائحة، كأني عندما أرتشف الماء أسكب لهيباً في جوفي. لا أحد يعلم ما يعانيه من يفقد لقمة عيشه، من يفقد الأمان النفسي والفكري في وطنه وبين أهله، من يشعر أن لديه طاقة وأفكاراً وخططاً ليتطور، فتتحطم كل هذه على صخرة الظلم والعنصرية وعدم

المساواة، والقوانين الظالمة التي لا تنصف سوى الأقوياء وأصحاب الشركات الكبرى، وحمَلة الأسهم ورؤساء مجالس الإدارات والتجار. نعم؛ العنصرية التي عرفناها كانت في أسوأ أنواعها، إنها تلك التي تقتل وأنت تنظر من دون حراك.

في اليوم التالي كنت أجلس أمام أحد موظفي مكاتب السفر والسياحة. أبلغته أنني أريد السفر إلى أي مكان، لكن ميزانية رحلتي محدودة جداً. أول ترشيح وضعه أمامي كان نحو البحرين، قال: «حتماً ستجد ما يسليك ويرفه عنك هناك». وافقت لكنه لم يجد أي حجز، ثم إنه ذهب نحو خيار آخر وهو السفر إلى دبي. قال: «ستعجبك، إنها أكثر من رائعة في هذا الوقت من العام». وافقت لكنه عاد يبلغني أنه لم يجد أي إمكانية حجز لرحلة طيران تغادر اليوم أو غداً، لقد كنت في شغف بالغ أن أسافر بأسرع وقت. بعد لحظات من البحث على الكمبيوتر نظر إلي وقال: «لماذا لا تذهب إلى أبو ظبي، فهي مدينة هادئة وجميلة». ظللت صامتاً ثم أضاف: «ستجد فيها مواقع متنوعة، وهي عموماً تملك مميزات كبيرة تختلف عن دبي أو البحرين». لا أعلم ولكني في تلك اللحظات شعرت أن موظف الحجز قد ضاق ذرعا بي ويريد التخلص مني. غني عن القول أنني وافقت قائلا: «لا بأس، هل توجد رحلة اليوم أو غداً؟». نظر نحوي ووجهه يتهلل فرحا: «نعم توجد رحلة فجر اليوم». أجبته: «أرجوك احجز عليها بأسرع ما يمكن. أريد الخروج من هذا السجن المضحك أو المبكي». إن قيمة التذكرة ذهاباً وإيابا كانت أقل من سعر تذكرة السفر بين بعض مدن وطني الحبيب. سأكذب إن قلت إنني لم أشعر بالحماسة، فقد عدت إلى المنزل سريعاً أرتب أغراضي ومستلزمات السفر بكل نشوة وسعادة، ولم تأت الساعة الواحدة صباحاً إلا وأنا في المطار، بينما رحلتي تقلع الساعة الخامسة. هذا الوقت الطويل في انتظار الإقلاع جلست خلاله أتأمل حركة الطائرات والمركبات في ساحة المطار، والفجر لتوه ينشر ضوءه الخافت على استحياء، كان العاملون في حركة دائبة من دون توقف، لا يعنيهم

حلول لحظات مهمة من عمر الإنسان، وهو التحول من الليل إلى النهار. كنت أغبطهم لأنهم ينشغلون عن همومهم وعن آلامهم ويغوصون في العمل، يبتعدون حتى عن التفكير. لم تصل الساعة السابعة صباحاً إلا والطائرة لتوها تلامس مطار أبو ظبي. لقد كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها الطائرة، وقد كانت تجربة عصيبة بكل ما تعني الكلمة. اجتاحتني مشاعر من الخوف والقلق وأنا وسط حالة من الارتباك النفسي. جعلت اضحك وأقول: «لو قدّر وتحطمت الطائرة أو هوت ما هي أكبر خسارة؟ ألم أتمنى الموت واعتبرته راحة؟».

أنهيت إجراءات الجوازات والجمارك، وتوجهت إلى مكتب تأجير السيارات واستلمت سيارة سويديه صغيرة الصنع، ثم خرجت إلى العاصمة التي توقعتها مكتظة ومزدحمة. هل كان توقيت وصولي هو الخطأ أم هي المدينة هكذا من دون زحام، على الرغم من أنها الآن ساعة ذهاب الناس إلى أعمالهم؟! السؤال الملح كان أين أجد فندقاً مناسباً للإقامة؟ بعد عدة انعطافات وضياع واضح شاهدت مطعماً يطل على البحر، فقررت التوقف عنده لتناول الإفطار. تميز بهدوئه وقلة ازدحامه، بل كان شبه خال، تنتشر في أرجائه موسيقى ناعمة باستحياء. وجدتها فرصة لوضع رأسي والتحليق في فضاء من الأفكار، واسترجاع الذكريات حلوها ومرها، الجميل منها والقبيح، السعيد والحزين. عندما تقرر فتح نافذة على الماضي لا يمكن أن تتحكم بما سيتسرب إليك من هذه النافذة، والمؤلم بحق أنني لم أتلق إلا نسمات من الذكريات المؤلمة الحزينة عن مرض والدي، ثم وفاته الدرامية، فقد تراقصت أمامي صورته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في ممر أحد المستشفيات الحكومية، بحجة عدم وجود سرير، ثم شتات وفرقة عائلتنا، ثم الوحدة والمرض الذي عانته أمي قبل وفاته هي أيضا. أتذكر أن أبي رحل عن الدنيا وهو يشعر بمرارة وظلم بالغين بسبب خديعة تعرض لها، حيث قام أحد المسؤولين بإقناعه أن يبيع أرضه بمبلغ كبير، وبعد بيعها فوجئ أبي أنها كانت من ضمن مخطط

تريد الحكومة نزع ملكيتها، وغني عن القول أن أبي خسر عشرات أضعاف الذي دفع له. توجه إلى القضاء من دون طائل. كان يقول دوماً: «الذي يؤلمني أن هذا المسؤول مليونير ولم يكن بحاجة للخديعة ليزيد ملايينه، وقد حرمني وأطفالي أن نشعر بالراحة والسعادة في الحياة». بكيت بل انهرت تماماً، وجعلت أغسل بدموعي تلك العوالق المزرية المترسبة في قلبي، وأحاول أن أعيد لنفسي التوازن، ولحياتي قيمتها، ولوقتي ثمنه.

في تلك اللحظات سمعت صوتاً أنثوياً يدوي في رأسي ويقول: «عسى ما شر، إذا فيه شي نساعدك به حاضرين، الناس للناس والكل بالله».

نعم إن عقلي اخترع وسيله لمساعدتي ولتخفيف توتري، لكنني استغرب اختياره للصوت الأنثوي، أنا لم أسمع من قبل أي عرض بالمساعدة، أيا كان نوعها من عشرات بل مئات، وإذا أردت آلاف الرجال الذين مررت بهم طوال محنتي وحتى هذا اليوم، فكيف بامرأة. وأنا في لجة هذا التحليل العميق شاهدت يداً بيضاء تمتد لتقديم منديل. رفعت رأسي فشاهدت سيدة تقف أمامي وهي تمسك بيدها الأخرى طفلاً. أعدت النظر نحو يدها التي تمسك بها المنديل وتناولته منها وكلي خجل وحيرة، ثم قالت: «عسى ما شر؟ هل يوجد شيء أستطيع أن أساعدك به؟». وقفت وشكرتها في محاولة للتبرير وللتغطية على كم الإحراج الذي يغطيني. أبلغتها أنني وصلت لتوّي وقد أضعت محل إقامتي، وأن أجواء الفندق مع هذه الإطلالة على البحر جعلتني أستعيد بعض الذكريات عن والدي الذي توفي. أجابتني قائلة: «رحمه الله، هذا مصيرنا جميعاً، شد حيلك، إذاً أنت قادم لتوّك ولست من هنا؟»...

نعم...

أهلا وسهلا وحياك الله، لكن يجب يكون عندك إيمان بالقضاء والقدر، وأن لا تكون ردة فعلك هكذا، الموت مصيرنا جميعاً وهذه حال الدنيا.

لا.. والدي توفي منذ نحو عامين، أنا تعرضت لفصل تعسفي من جهة عملي منذ نحو أربعة أشهر، وهذا كان له بالغ الأثر على نفسي وعلى حياتي برمتها، ووسط هذه الضغوط وأمام هذه الأجواء الجميلة والبحر، كانت الأفكار تأتي وتذهب، فعشت هذه الحالة.

بسيطة، العمل كثير، المهم أن تكون عندك العزيمة والإصرار، لا تحمل همّاً الآن سأتصل بأخي وحتما سيجد لك وظيفة تتناسب مع مؤهلاتك.

كنت مذهولاً من كلماتها ولزمت الصمت، بل ما زلت أعيش في دوامة صدمتها الأولى فكيف بوضعي الآن. وأنا وسط هذه الحالة بادرتني تسأل: «ما هو مؤهلك الدراسي وخبراتك؟».

أنا حاصل على دبلوم فني في مجال الكهرباء، وأمضيت في العمل نحو خمسة أعوام.

ما شاء الله، إذاً أنت مساعد مهندس؟

مساعد مهندس - يا سلام على رفع المعنويات، أول مرة أسمع بهذا التصنيف الوظيفي الجميل، الذي يفسح المجال أمامك للنظر إلى المستقبل - هكذا كنت أكلم نفسي، لكنني عدت وقلت لها المسمى الوظيفي الصحيح (فني كهرباء).

لم ترد لأنها كانت مشغولة بالحديث عبر هاتفها الجوال، فقد سمعتها تقول: «سلطان أنا الآن في المطعم البحري، أقف مع شاب لديه شهادة مساعد مهندس في مجال الكهرباء، وهو ابن ناس ومحترم ويهمني أمره، وأنتم ما شاء الله عندكم مئات الوظائف، وموظفوكم من كل مكان في العالم؛ لذا لا أريد أن أسمع منك أي عذر، أريدك أن توظفه خاصة أن عنده خبرة في مجال عمله». ثم واصلت تقول: «خلاص تعال أنا انتظرك في المطعم». في هذه اللحظات أحضر النادل طلبي من الطعام، قالت: «أكمل فطورك، نصف ساعة وسيصل

أخي سلطان ويتفاهم معك». ثم انصرفت نحو طاولة طعامها حيث بقية أطفالها وأفراد أسرتها.

ظللت مندهشا، الصمت يسيطر تماماً على جوارحي كافة، حتى مراكز الحركة في جسدي أصابها السكون والتبلد. لم أتمكن من أن أضع في فمي لقمة واحدة، أنا لم اطلب منها وظيفة! ثم إن الوظائف لا تأتي بهذه الطريقة، إنها امرأة، قد يسأل أخوها من أين أعرفها؟ بماذا أجيبه؟ ما هذه المشكلة التي أوقعت نفسي في وسطها؟..

مضى بعض الوقت وأنا ما زلت غارقا في حيرتي وذهولي، أفكر أن أتوجه لها وأعتذر ثم أنصرف، وأحيانا أفكر في دفع فاتورة طعامي ومغادرة المكان، وأنا وسط هذا المد والجزر من الأفكار، وجدتها مرة أخرى تقف أمامي، وهذه المرة يرافقها شخص قدمته لي قائلة: «أخي سلطان». نهضت وأنا أجيب بحماسة وأحييه، ثم إنه جلس بجانبي وبدأ يسألني عن نوع الشهادة التي أحملها، ومن أين حصلت عليها، وعن الشركة التي عملت فيها، وعن طبيعة عملي. كذلك سأل عن المشكلة التي تسببت بطردي من العمل، وسأل أخيرا عن المرتب الذي كنت أقبضه. وبعد أن أخبرته أنه لا يتجاوز الستة ألاف، نظر إلى أخته باستغراب وقال: «أين أوراقك وشهادتك»، فقاطعته شقيقته وهي تقول: «أوراق ماذا؟ هو جاء هنا لتناول طعام الإفطار»، فضحك وأعطاني كرته، وقال: «إذا انتهيت من طعامك إلحق بي على هذا العنوان»، ثم غادر ولحقت به شقيقته، وبقيت في دوامة من الذهول التام. لا شك في أنني أحلم، وأن ما يحدث أمامي ضرب من ضروب الخيال، مستحيل أن يكون هذا حقيقياً. ألقيت نظرة على الكرت الصغير وقبضت عليه بقوة، ثم غادرت المطعم، وأنا أقود السيارة بكل حماسة، ملتمساً الطريق الصحيح نحو مقر عمل سلطان. كنت أعيش حالة حقيقية من المد والجزر من الأفكار التي تتلاعب بي وتتلاطم في رأسي. هل من المعقول أن يتم توظيف الناس بهذه الطريقة البسيطة جدا والعفوية؟ ثم ضحكت وقلت: «حتى ولو حدث هذا فإنه سيتم إعطائي

مرتباً قليلاً، وسيتم القذف بي إلى أحد المواقع النائية البعيدة». بعد ضياعي التام تركت السيارة بالقرب من أحد مراكز التسوق، واستقللت سيارة أجرة لتوصلني إلى مقر الشركة، كان المبنى بالقرب من المطعم البحري، وقد وصلته في وقت قصير. عندما هممت بالدخول أوقفني رجل أمن يسألني عما أريده. أجبته: «إنني على موعد مع السيد سلطان». طلب مني الانتظار قليلا، وبعد لحظات جاء موظف واصطحبني إلى الأدوار العلوية من المبنى، ثم أدخلني غرفة الانتظار، حيث تم تقديم المشروبات الساخنة والباردة.

بعد مضي بعض الوقت جاء موظف آخر ورافقني إلى مكتب السيد سلطان، حيث استقبلني بحفاوة، وسأل هل يمكن أن يتم إرسال أوراقي عبر الفاكس؟ اتصلت مباشرة بأخي وطلبت أن يرسل صورة من أوراقي وزودته بالرقم، وأثناء الانتظار شعرت أنني أشكل ثقلاً وعبئا على شخص يجاملني لدرجة أنه لا يعرفني جيدا، فقلت له: «يمكنني أن أنتظر خارج المكتب». ابتسم ونهض من مقعده وجلس أمامي وقال: «سأعطيك نبذة عن الوظيفة اختصارا للوقت، في انتظار وصول الفاكس، ستعمل في تخصصك نفسه هنا في مبنى الشركة الرئيسي في أبو ظبي، وستشرف على عدد من الفنيين من العمالة الآسيوية، وأنت تعرف ما المطلوب منك، سيكون مرتبك الشهري بداية 25 ألف درهم، وسيتم منحك بدل سكن ثلاثة أشهر، فضلا عن توفير العلاج لك ولأسرتك، كذلك سنزودك بسيارة جديدة ستكون أحدث طراز، هذا وسنقوم بإلحاقك بدورة تدريبية كلما لمسنا منك تميزاً وإبداعاً وانضباطاً، كما أننا سنوفر لك السكن أول سنة من الشركة تقديراً لظروفك حتى تتمكن من تيسير أمورك وتنتقل بسلاسة ومن دون مشقة، وسأمنحك إجازة لمدة أسبوعين لتعود إلى بلدك وترتب أوضاعك وتحضر أيضا أوراقك الأساسية، وسيكون بداية الشهر البداية الفعلية لاستلام عملك». كان يتحدث وأنا أعيش حالة من المفاجأة التي صعقتني عن الكلام، وألجمت لساني عن الحديث، وكانت الدموع تملأ عيوني، أما قلبي فقد أعتصره ألم بالغ، كنت كمن يريد أن يطير من

الفرح، وعلى الرغم من هذا يريد البكاء والصراخ، لكن سيل المفاجآت لم يتوقف بل أخرج ظرفاً وقال: «هنا مبلغ من الشركة اعتبره سلفة تردها مع أول راتب لك»، وسلمني الظرف. قاطع حديثه دخول أحد موظفيه إلى المكتب وهو يحمل بعض الأوراق، وبعد أن تناولها منه ألقى عليها نظرة ثم قال، وهو لازال ينظر في الأوراق: «هذا عقدك، فيه تفاصيل إضافية يوضح لك حقوقك وحقوق الشركة، وطبيعة العمل وأوقاته، والإجازات وجميع التفاصيل، ثم رفع رأسه نحوي قائلا: «خذه معك إلى الفندق وراجعه، إذا كانت عندك طلبات أو أي شروط تريد أن نضيفها بلغني!»، نظرت إليه وقلت: «لا طلبات، فقط أنا مذهول بشكل تام ولا أعرف ماذا أقول لك، حتى الفاكس لم يصل إلى الآن». ضحك وهو ينهض ورد قائلا: «وقع وقول بسم الله».

هذا المجتمع وحسب

1

إذا سمعت بخلط ودمج بين الدين والعادات والتقاليد، فأنت هنا!

2

يسافر لتمضية إجازة الصيف بمباركة الأم والأب، ويجلب لهم الإيدز، وتنتهي حياة شقيقته لأنها صدقت عابراً قال: إنه سيتزوجها.

3

يقول: إن من الدين أن لا تخرج المرأة إلا من بيت أبيها إلى بيت زوجها، ومن بيت زوجها إلى القبر.. هل تعرفون أي دين يتحدث عنه؟!...

4

تتمثل لدينا أعظم صور المساواة عندما تشاهد الطبيب والممرض والعامل والمريض يقفون بجانب بعض أمام باب المستشفى، يدخنون في صورة تنم عن اتحاد قوى الشعب وإلغاء الطبقية العمالية!

5

من ضمن ابتكاراتنا العظيمة التي أثرت الإنسانية، تعريف الوطنية بأنها: مدح المسؤول الكذاب، والإشادة بمنجزات لم تتم، وتخوين المخلصين، وأن الوطن لفئة، وأن الآخرين عابرون. وإذا لم تصدقني فأنت وطني!

6

بلغت العدالة لدينا مرحلة متقدمة. لا توجد في أي أمة من أمم الأرض، من صورها المشرقة، الحكم على سارق شاة، بسبب الفقر والجوع، بالسجن ستة أعوام مع الجلد، والحكم على مختلس ومرتش بالبراءة لأنه مسحور وتلبسه جني.

7

100% نحن مسلمون، ونصلي خمسة فروض يوميا، ونصوم رمضان ونزكي ونحج، وعلى الرغم هذا لدينا وزارة للشؤون الإسلامية، وهيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كل وزارة ومصلحة إدارة للشؤون الإسلامية، ولدينا جامعات إسلامية، وجامعات أخرى فيها كليات للدراسات الإسلامية، فضلا عن مئات الجمعيات والمؤسسات التي تعنى بالتوعية الدينية، هل هي وصاية وخوف وعدم ثقة في إيمان الناس؟!

8

أتذكر حديث رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، أتذكر هذا الحديث الشريف كلما سمعت بقصة تتكرر على مسامعنا يوميا عن أناس قتلوا، وللهروب من القصاص تغدق عائلاتهم وقبائلهم بالهدايا والأموال على أولياء الدم، بل يحدث إجراء وتأجيل لتنفيذ القصاص، لعل قلوب أهل الدم تلين وتنسى، فتقبل بالعطايا والأموال، بينما بائس فقير قتل خطأ أو دفاعا أو رد أذى، ينفذ فيه القصاص خلال أشهر معدودة.

9

يقولون: إن الإسلام يدعو للمساواة، وعدم الطبقية، وجميعنا سواسية كأسنان المشط، وهم يقسمون الناس إلى فئات وطبقات، فئة العلماء وثانية طلبة العلم، وثالثة تخص أولياء الأمر، أما الفئة الأوسع انتشارا وتضم السواد الأعظم فهم الرعاع، الذين يطلق عليهم مسمى العامة...

10

مواطن يستجدي أحد مسؤولي الصحة للموافقة على علاج طفله، والمسؤول يرد: «لن أتجاوز الأنظمة!».. أتراه يطلب علاجاً أم إرساء عطاء مشروع عليه؟.

كان ظني أن النفوس كبار فوجدت النفوس شيئاً حقيراً

لوثته الحياة تم استمرت تبزر العالم العريض شروراً

أبو القاسم الشابي

طفل في زمن الأقزام!

مع بزوغ الفجر دبت الحركة للتو في أرجاء الحي الفقير، هذا عامل يغسل مدخل المقهى الشعبي، وبائع الفول يجهز عربته، والخباز أمام التنور ينهر العامل أن يسرع في ترتيب الخبز من أجل الزبائن الذين سيتوافدون بعد قليل، يصرخ به قائلا: «كل يوم تأتي إلى هنا والكسل يغطيك، ألا تنام مبكراً؟»

أحد المنازل المتهالكة المتواضعة، من خارجه تظهر علامات البؤس الذي يغطي المكان، مع صوت القرآن الكريم الذي يتصاعد من مذياع المقهى الشعبي، في داخل المنزل المتهالك الفقير، رجل كبير في السن يرفع صوته: «أحمد، أحمد، ألم تستيقظ بعد؟»، لا أحد يجيبه، والعجوز يصب اهتمامه على تجهيز طعام الفطور والشاي، يظهر طفل في الثامنة من العمر، ويقول: «نعم يا أبي إنني مستيقظ منذ فترة، هل تريد أن أساعدك بشيء؟».

الأب يجيبه: لا يا صغيري، لقد أنهيت ما في يدي، هل جهزت حقيبة المدرسة؟

الطفل أحمد يدلف إلى المطبخ حيث يعد أبوه الطعام، ويتناول صحناً ليضع

فيه إبريق الشاي والأكواب وهو يقول: «نعم لقد جهزتها من المساء، هل تعلم يا أبي بأني أشعر أن ما نتعلمه سخيف جدا! إنه لا يحتاج حتى للاستذكار! إن الدراسة سهلة جدا»..

الأب يضحك، وهو يحمل صحناً آخر فيه بعض الخبز والبيض والفول، ويهم بالخروج من المطبخ، يجيب طفله قائلا: «إنه لشيء مفرح أن تكون الدروس سهلة، خاصة وأنني لا أجيد القراءة والكتابة لكي أساعدك، وأيضا لا تجد من يساعدك، لكن لا تكن ثقتك مفرطة جدا فتكون النتائج عكسية وسلبية»، فيضحك الطفل وأبوه..

في الشارع

بدأت الحركة تدب في المدينة المزدحمة والسيارات تتحرك ببطء، والشارع الذي بدا خاليا قبل دقائق أصبح مكتظاً بالناس والمارة، والفوال يصطف أمامه عدد من المارة، أما المخبز فقد تجمع الناس أمامه في طابور طويل، والمقهى الشعبي ممتلئ بالمرتادين الذين يرتشفون القهوة ويتبادلون الأحاديث أو قراءة الصحف. والأب العجوز وطفله خارجان لتوهما من منزلهما، أحمد يحمل على كتفيه حقيبته المدرسية، والعجوز يمر بالشارع يسلم على هذا ويتحدث مرة مع الجزار، ومرة أخرى مع بائع الخضروات، خلال مسيرته يتوقف عند بوفيه ويطلب ساندويتشات فيقول أحمد: «أبي إنني غير جائع».

يجيبه: «الآن لا تشعر بالجوع، لكن في الظهيرة ستحس بوخزه، ثم إنني أنا أيضا سآخذ واحداً».

يتناول الأب الساندويتشات من البائع ويدس واحدة منها في حقيبة أحمد.. وينصرفان.

عند بوابة المدرسة الخارجية يودع الأب طفله الذي يدلف مسرعاً، بينما

ظل يراقبه حتى اختفى ثم انصرف متوجها إلى العمل.

كانت الفوضى في الفصل الدراسي، حيث صراخ الطلاب يغطي المكان، عدد منهم كانوا يتهكمون على ملابس أحمد الرثة، وهو غير مبال، وإنما يرفع رأسه وهو يبتسم جالساً على كرسيه وفي يديه كتاب وقلم.

الأب العجوز لتوه يصل إلى المصنع، حيث يسلم عليه العمال ويمازحونه، توجه مباشرة إلى مكينة تقوم بخياطة الجلود التي تصله من أقسام الدباغة، وبدأ العمل مباشرة، حتى زملاؤه كانوا يمازحونه: «لماذا العجلة؟ هل تتوقع أن الآلة فقدت؟!».

في الفصل الدراسي كان المعلم يشرح درساً في مادة الرياضيات، ثم سأل الطلاب عنها فلم يجب أحد. رفع أحمد يده وبدأ بالإجابة وشرحها، ذهل المعلم وبدأ يكيل المديح لأحمد ويهنئه على ذكائه ونبوغه، ثم سأله: «هل والدتك تساعدك على الاستذكار؟»، هز رأسه بالنفي، وقال: «أمي متوفاة»، فقال المعلم وهو يربت على كتفيه: «إذاً والدك هو من يقف خلفك»، رفع احمد رأسه وهو يبتسم: «نعم إنه أبي».

في المصنع تعالى صوت ضجيج الآلات وحركة العمال الدائبة، والأب العجوز منهمك يعمل على تلك الآلة، وفي غمرة الانهماك، قام أحد العمال بتشغيل آلة دبغ الجلود، بينما كانت يد العجوز داخل الجلد يقوم بتسويته، فهشمت عظام اثنين من أصابع يده. توقف العمل وتجمع العمال عند العجوز يخففون عنه، كلٌ يريد تقديم المساعدة، وهو يصرخ من الألم بينهم. مضت لحظات عندما بدأ العمال يفسحون المجال لشخص اقترب من العجوز وهو يقول: «هذا ما كان ينقصنا، فأنت تؤخر دائما الإنتاج، لقد كبرت وأصبحت خرفاً». يتحامل العجوز على نفسه، ويحاول التماسك والعرق يتصبب من جبينه، ويقول: «كلا إنه جرح بسيط جداً». يقترب عامل ويقول: «إن أبا أحمد عامل مخلص

ويعمل بانتظام منذ سنوات هنا، والإصابات تحدث». صاحب المصنع وهو يتذمر يصرخ بالجميع: «لماذا تتركون أعمالكم، هيا انصرفوا». يتفرق العمال ويقترب من العجوز ويقول له: «اذهب إنك بهذه الحالة ستعطلنا». ثم يشير إلى عامل آخر أن يحل مكانه.

يغادر العجوز المكان، يقترب أحد عمال المصنع منه ويقول: «هل ترغب أن أوصلك؟». يرد العجوز: «كلا، شكرا لك». يغادر المصنع وهو يعاني من ألم بالغ.

بدأ الأطفال في الخروج من المدرسة، والصغير أحمد متوقف عند بوابتها الرئيسية ينتظر أبيه كعادته كل يوم لكنه تأخر. أحد الأطفال يقترب منه يشتمه ويوسعه ضربا. أما الأب فقد كان نائما يهذي بسبب الآلام التي يعانيها.

في المدرسة وعند بوابتها لم يعد هناك أثر للناس، بل حتى الشارع بات هادئا تماماً، لكن بالقرب من البوابة الرئيسية الموصدة للمدرسة جلس الصغير أحمد، وهو يتلمس الجروح التي أصابته بسبب الضرب الذي تعرض له. ينهض ويحمل حقيبته ويبدأ بالمسير باتجاه المنزل. وهو في طريقه يشعر بالخوف من السيارات وزحام الناس، هذا يدفعه، وهذا ينهره، ثم إنه أخذ في الركض بشكل متواصل حتى وصل إلى المنزل وقد تبللت واتسخت ملابسه، والجروح تملأ وجهه. قام يركل الباب بقدميه ويضربه بيديه وهو يصرخ ويبكي: «أبي أبي»، نهض العجوز من نومه أو من إغماءته على دوي الباب وصراخ ابنه، فتح الباب.. ليرتمي أحمد في حضنه ويضمه الأب إلى صدره وهو يقول: «آسف آسف يا صغيري لقد نمت، كان هذا رغماً عني إنني آسف».

سكون المدينة

غفت المدينة تقريباً وتحرك السكون للشارع الشعبي، وبدأت خطوات المارة تقل. أحمد في المطبخ يعد طعام العشاء. يوقظ أبيه بلطف وهدوء، ويقرب منه بعض الكمادات وهي عبارة عن قطع من القماش، يضعها الأب على إصبعيه، وأحمد يقول: «الطعام».

الأب العجوز: ما شاء الله يا أحمد لقد كبرت وأصبحت رجلاً.

أحمد: تعال يا أبي لنأكل.

الأب العجوز: صغيري العزيز إنني لا أشعر بالجوع.

أحمد: لماذا لم تذهب إلى المستشفى؟

الأب: إنه مجرد جرح بسيط، هيا اذهب لتناول طعامك واخلد للنوم.

أحمد يتناول طعام العشاء الذي يتكون من الخبز والزيت والماء.

عند الصيدلي

مضت أيام أخرى، العجوز يتحامل على إصابته. توجه إلى صيدلية في الحي ونصحه الصيدلي أن يذهب فورا إلى المستشفى.

قال العجوز: من يستطيع تحمل فاتورة العلاج؟ ومن يستطيع إيجاد الوقت؟

الصيدلي: يا أبو احمد، إن هذه إصابة عمل، ويفترض أن يقوم المصنع الذي تعمل فيه بعلاجك.

العجوز: الحمد لله أنهم لم يفصلوني حتى الآن، كيف بعلاجي؟

الصيدلي: إن هذا حقك والقانون معك.

العجوز: القانون لم يسن لأمثالي. ثم من يملك الوقت والمال ليرفع دعوى وقضية على صاحب المصنع ليعوضني. إن هذه الإصابة طفيفة.

الصيدلي: إنها ليست كذلك، وأخشى أن تتطور حالتك. أنصحك بعلاجها فورا، وهذا مطهر للجرح وضمادات ومسكن للألم. إن عظام إصبعيك مهشمه تماما. يا رجل ألا تشعر بالآلام؟!....

العجوز: كم ثمنها؟

الصيدلي: مئة وستون...

العجوز: مئة وستون! إنه مبلغ كبير لا أملكه.

الصيدلي: يا أبو أحمد والله لو أني أملك هذا المحل لما طلبت منك نقودا، حسنا خذ الأدوية وأنا سأجعلهم يخصمونها من مرتبي.

العجوز: كلا... أنا أشكرك، إنني أعرف ظروفك. أطفالك أكثر حاجة لهذه النقود مني. اطمئن سأتدبر أمري. (ويغادر الصيدلية).

أما في المنزل فقد كان أحمد يستذكر دروسه، وعندما وصل أبوه نهض واقترب منه، وقال له: لا بد أن تذهب إلى المستشفى.

الأب العجوز: أعتقد أنه فعلا لا بد أن أذهب فالآلام يا أحمد لم أعد أحتملها.

في المستشفى

كان المستشفى يكتظ بالناس. العجوز يجلس على كرسي أمام مكتب أحد الأطباء، والطبيب ينظر في الملف الذي أمامه، ثم يرفع رأسه نحو العجوز ويقول له: «منذ متى هذه الإصابة؟».

العجوز: منذ ما يقارب الثلاثة أشهر والنصف تقريبا.

الطبيب: لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

العجوز: إنها ظروف عملي، وشح المال؟

الطبيب: ظروف عملك! إن من يسمعك يقول إنك تعمل عملاً مهماً لا يمكن تركه حتى لا تتعطل مصالح الناس، وماذا عن شح المال، ألم يعد هذا الشح موجوداً الآن؟

العجوز: جمعت بعض النقود خلال هذه الفترة واقترضت بعضها الآخر، وأرجوا أن تكفي.

الطبيب بحدة: إننا مضطرون أن نبتر الإصبعين، فقد أصيبت بالغرغرينا.

العجوز بذهول وخوف: ماذا؟

الطبيب: ألم تسمع؟ ألا تعرف الغرغرينا، لا بد أن يتم بتر هذين الإصبعين بأسرع ما يمكن، هل كلامي واضح؟

العجوز: وهو ينظر نحو إصبعيه المصابين، والدموع تتساقط من عينيه: «ألا توجد وسيلة أخرى لعلاجها؟

الطبيب: لا توجد، ولابد أن يتم هذا سريعا.

العجوز: لكنني سأفقد عملي!

الطبيب: أسمعني جيدا، لقد تأخرت كثيرا في مراجعة المستشفى، فالجرح بات ملوثاً وهو ملتهب كما يظهر، إن قرار بترهما إنما هو مرحلة أولى من العلاج، لا أخفي عليك، لا بد أن يتم هذا بسرعة، ولو حدث تأخر فقد تنتقل الغرغرينا إلى بقية اليد. هل كلامي واضح؟

العجوز: ينهض، وهو يتمتم: نعم إنه واضح..

يصل أحمد إلى المنزل حاملا حقيبته، يشاهد أبيه ويتقدم منه ويقبل يده، فيقول الأب: «أعتذر يا صغيري لم أتمكن من الحضور لأخذك من المدرسة».

أحمد: لا بأس لقد اعتدت الآن، ولم يعد هناك ما يدعو لحضورك من أجل أخذي مثل السابق، لم أعد خائفا من الطرقات والناس، اطمئن تماماً.

الأب، وهو يمسح على رأس طفله أحمد: لقد كبرت، ليت أمك تشاهدك الآن، ستكون فخورة بك كثيرا جدا.

أحمد وهو ينظر إلى يد أبيه: ماذا قال الطبيب؟

الأب ينظر إلى طفله أحمد، ثم ينظر إلى يده وهو يقول بحسرة: إنه يلح أن يتم بتر هذين الإصبعين.

أحمد: ماذا... بتر...!

الأب العجوز: نعم يقول إنها مصابة بالغرغرينا ولا ينفع معها الدواء أبداً سوى البتر، ولا بد أن يتم هذا سريعا.

الصمت يغطي المكان، يقطعه صوت الأب العجوز وهو يقول: إنني لست خائفاً من بتر هذين الإصبعين، لكنني أعرف بأنها ستكون فرصة ليستغني المصنع عني، وهذا ما يؤرقني ويقلقني.

أحمد: لا يا أبي لا تجعل هذا يقلقك أبداً، فأنا موجود وسأقف بجانبك، ثق من هذا.

الأب العجوز لم يتمالك أعصابه فأخذ يجهش بالبكاء، وهو يضم ابنه إلى صدره.

شعر أحمد بالمسؤولية، خاصة بعد عدم تمكن أبيه من الحضور إلى المدرسة لأخذه. منذ ذلك الحين بدأ أحمد يفكر في جوانب أخرى من الحياة، بدأ ينظر جيدا إلى ما يحيط به وما يعيشه هو وأبوه من وحدة وفقر وعوز. عندما كان عائداً من المدرسة في اليوم التالي لم يتوجه مباشرة إلى المنزل، أخذ يسير في الشوارع بين السيارات، وعلى الشاطئ بجانب البحر، وهو يحمل على كتفيه حقيبة المدرسة، كان يشاهد عددا من الأطفال يتراكضون بين السيارات لبيع المناديل، وثانيا يبيع الفل، والبعض يحمل أقفاصا داخلها عدد من الطيور يعرضها للبيع، وطفلا ثالثا يبيع بعض الأقمشة والحلويات والماء.

عاد أحمد إلى منزلهم وهو مطأطئ رأسه. عندما دلف للمنزل سمع نحيب والده وآهاته من الألم، أقترب منه وقال: أبي هل أنت بخير؟

الأب العجوز: أهلا يا طفلي الصغير.. نعم إنني بخير.

الصغير أحمد: أبي هل ذهبت إلى المستشفى؟

الأب العجوز: نعم.

الصغير أحمد: ماذا قالوا لك؟ أين العلاجات؟

الأب العجوز صامت! فقط آهات خافته حيناً ومرتفعة حيناً آخر..

الصغير أحمد يلتقط ورقة مدوناً فيها وصفة الأدوية، يأخذ في الهرولة إلى الخارج، ويتوقف أمام الصيدلية يطلب الأدوية، يحضرها البائع ثم يطلب النقود.

الصغير أحمد: لا أملك نقوداً!

البائع يستعيد الأدوية ويقول: إذا أحضرت النقود يمكن أخذ ما تشاء من الدواء (وهو يضحك).

الصغير أحمد: إن أبي يتألم وهو بحاجة إلى الدواء.

البائع لا يعيره أي اهتمام.

يخرج أحمد من الصيدلية وهو مطأطئ رأسه، يظل يفكر عند مدخل الصيدلية، ثم أخذ في الهرولة والركض حتى غاب وسط الظلام الذي بدأ يلف المكان، اتجه إلى شارع منزو حيث ينتشر الهدوء والليل يمتد ويغطي الحياة، توقف أحمد، أعياه التعب والركض المتواصل، أنفاسه متصاعدة ولهاثه لا يتوقف، وبجانب رصيف وضع رأسه لأول مرة بعيدا عن منزله، وبعيدا عن يدي أبيه، ومضى في نوم عميق. استيقظ على أصوات عدد من أقرانه من الأطفال الذين بدؤوا ينتشرون في المكان كأنهم أشباح تسابق شروق الشمس.

كانوا يتأهبون لجولة جديدة من العمل. يجهزون بضائعهم الزهيدة، ويرتبونها لبدء بيعها. كلما اشتد بزوغ الشمس تزايدت حركة سير المركبات وتصاعدت الضوضاء في المدينة، وكانت حركة الأطفال بين المركبات أكثر وركضهم متواصلاً، ومن بينهم أحمد الذي أحمر وجه من شدة الحر، هناك في المنزل كانت تقبع حقيبة المدرسة، وأبوه طريح الفراش. كان أقرانه الأكثر حظاً ما زالوا في فصلهم الدراسي يتلقون تعليمهم، أما أحمد فقد وجد زملاء وأصدقاء جددا يخوض معهم غمار حياة جديدة. كان اليوم طويلا ومتعباً، حتى أشفقت الشمس على الطفولة فقررت أن تذهب للمغيب. انقضى يوم رهيب من عمل شاق مؤلم، ووسط الظلام الذي انسكب في الأرجاء كان الصغير أحمد بين أقرانه الجدد، أحدهم كان يدخن سيجارة، والآخر كان يوزع الأرباح على الأطفال الآخرين، يعرض أحدهم سيجارة على أحمد فيرفضها، ويقبض النقود، ثم يأخذ في الهرولة. ينادي عليه الأطفال: «موعدنا في الغد لا تنس!». بعد ركض متواصل كان الصغير أحمد يتوقف عند الصيدلية، حيث قام بشراء الأدوية، لكن النقود لم تكف، فيقول أحمد للصيدلي: «سأحضر الباقي غداً»، فيهز الصيدلي رأسه ويسلمه الأدوية.

يهرول باتجاه المنزل، وما إن يدلف حتى يفاجأ أن أباه غير موجود. يرمي الأدوية على فراش أبيه، ويخرج لكنه في حيرة لا يدري ما العمل، ظل واقفا عند الباب في انتظار عودة أبيه، شاهده رجل واقترب منه وهو يسأل: «أحمد ماذا تنتظر هنا؟».

الصغير أحمد: انتظر أبي أن يعود.

الرجل: إنه في المستشفى منذ الصباح.

الصغير أحمد: ماذا.. أبي في المستشفى؟!»

الرجل: نعم فقد اشتد عليه المرض وآلام يده، وطلب من الفوال أن يوصله إلى المستشفى، ألم تكن موجودا؟

الصغير أحمد يأخذ بالركض والهرولة.

والرجل يصرخ به وينادي: «أحمد.. أحمد»، لكن الصغير كان مسرعاً، تركه الرجل وانصرف. أما أحمد فقد كان يجول في الشوارع والهواء يلفحه. يسير ودموعه تتفرق على وجنتيه، وبعد أن أعياه التعب توقف عند أحد المحلات التجارية. سأل البائع: «أين أجد المستشفى؟»

البائع من دون أن يرفع نظره: إنه بعيد من هنا، هل لديك سيارة؟

هز أحمد رأسه بالنفي، رفع البائع رأسه، وجد طفلاً يقف أمامه!

البائع: ماذا تريد من المستشفى؟

أحمد يجيب: ذهب إليه أبي صباح اليوم.

البائع وقد شغل بالبيع مع زبون، يعود لأحمد قائلا: لا أعرف أين المستشفى هيا انصرف.

يخرج وعلامات الذهول والضياع تحيط به، لكن البائع لحق به وقال: «يمكنني أن أوصلك بعد ساعة إلى المستشفى، إذا رغبت يمكنك الانتظار هنا»، هز أحمد رأسه بالموافقة والفرح يتطاير من بين عينيه.

انشغل البائع بالمشترين، وبينما كان يسلم امرأة مشترياتها ثقل عليها حمل الأكياس، فقالت للبائع: «هل يمكنك مساعدتي لإيصال هذه الأكياس إلى السيارة؟»، فقال: «بالطبع»، وصرخ بأحمد: «هيا انهض أوصل هذه الأكياس إلى سيارة هذه السيدة». نهض الصغير مسرعاً وحمل بعض الأكياس وأوصلها، ثم عاد وحمل دفعة أخرى من بضائع السيدة المتبقية. وبعد أن فرغ عاد وجلس.

بعد برهة من الزمن تقدم من البائع وقال: «ألم يحن الوقت لتوصلني إلى المستشفى؟». صرخ به البائع: «تباً لك هيا اغرب عن وجهي، لن أوصلك أيها اللعين». خرج أحمد مسرعا إلى الشارع.

بعد سير طويل جلس بجانب شاطئ البحر، كان أحد العاملين يقوم بشواء بعض اللحم وإعداد الفطائر وبيعها للناس. كان أحمد ينظر نحو الشواء باستمرار. توجه نحوه العامل ومد له ببعض الطعام.

أحمد: كلا شكرا، إنني أريد الذهاب إلى المستشفى.

العامل: المستشفى لماذا؟ هل تشعر أنك مريض؟

أحمد: إن أبي قد أدخل إليه وأريد الذهاب لرؤيته.

العامل وقد جلس بجانب أحمد: هيا تناول هذه الفطيرة، وسأفكر لك بطريقه أوصلك بها إلى المستشفى.

أحمد: صحيح؟

العامل: نعم صحيح.

بعد مضي بعض الوقت قام العامل بإغلاق محله الصغير، وأمسك بيد أحمد وذهب به إلى أحد الشوارع الرئيسية، حيث قام بإيقاف سيارة أجرة، وقال لسائقها: «هذا الطفل يريد الذهاب إلى المستشفى من أجل رؤية والده الذي أدخل هناك اليوم، فهل يمكنك أن توصله؟».

سائق التاكسي: نعم

العامل: كم ستأخذ منه؟

سائق التاكسي ينظر نحو أحمد ويسأل: كم معك من النقود أيها الصغير؟

أحمد يهز رأسه بالنفي.

العامل يتدخل: أنا من سيدفع لك أجرة إيصاله إلى المستشفى.

سائق التاكسي يضحك بصوت مرتفع ويقول: «هل تحسب نفسك أكرم مني؟ أيها الطفل اركب السيارة». قام العامل بحمل أحمد ووضعه في التاكسي.

وقال: «اطمئن إن أباك بخير، اطمئن». هز أحمد رأسه بالإيجاب، وضع العامل في جيب أحمد عشرة ريالات.

في الطريق سأل سائق التاكسي: منذ متى ووالدك في المستشفى؟

أحمد: منذ صباح اليوم، جئت من المدرسة ولم أجده.

سائق التاكسي: حسناً ولماذا ليست أمك أو أحد إخوتك الكبار من يوصلك؟.

أحمد: أمي متوفاة وليس لدي إخوة، أنا وأبي فقط.

سائق التاكسي: ينظر إلى أحمد ويهز رأسه بتأثر.

عند مدخل المستشفى توقف، ونزل أحمد مهرولاً نحو المدخل، وترك باب السيارة مفتوحاً، نزل السائق ليغلق الباب وهو ويقول: «الله يطمئنك أيها الصغير».

كان الهدوء يعم أرجاء المستشفى، وسرعان ما قام أحد رجال الأمن بإيقاف أحمد، الذي بادره قائلا: إن أبي هنا وأريد رؤيته.

رجل الأمن: هل أبوك يعمل هنا؟

أحمد: لا إنه مريض.

الرجل: مريض؟

أحمد: نعم مريض.

رجل الأمن: تريد زيارته؟

أحمد: نعم نعم.

رجل الأمن: هذا ليس موعدا للزيارة، اذهب إلى المنزل وتعال في الغد في موعد الزيارة، وربما أتركك تدخل على الرغم من صغر سنك.

أحمد: أريد رؤية أبي، (ثم بكى).

رجل الأمن: أين أمك؟

أحمد: أمي متوفاة، وليس لي إلا أبي، أريد أن أراه فقط.

رجل الأمن: حسنا ما هو اسم أبيك؟

أحمد يخبره بالاسم.

الرجل يأخذ أحمد إلى مكتب ويبحث عن الاسم، ثم يصعد به إلى الدور التاسع ويدخله إلى إحدى الغرف، حيث كان يجلس فيها عدد من المرضى. شاهد أحمد أباه وهو نائم، فألقى بنفسه على صدره، واستيقظ الأب وهو يقول: «صغيري أحمد، الحمد لله أنني شاهدتك. أأنت بخير يا صغيري؟ لقد كنت أحلم بك، آسف يا صغيري، آسف جدا»..

أحمد يمسح دموعه ويجيب أباه: اطمئن يا أبي إنني بخير.

إحدى الممرضات تقترب من رجل الأمن وتقول له: هل هذا هو ابنه؟

رجل الأمن: نعم... كما يبدو

الممرضة: لقد كان يهذي وينادي: «صغيري أحمد سيضيع.. أريد أحمد»، منذ الصباح.

رجل الأمن يهز رأسه: إنه أحمد... إذاً!

لم يُسمح لأحمد أن يمكث مع أبيه، فغادر وبقي بجانب المستشفى، حيث التف على نفسه وجعل يبكي حتى نام.

بدأت أشعة الشمس بالشروق، تمد أنوارها على الأرجاء، نهض أحمد، وتوجه إلى المستشفى، حيث استوقفه رجل أمن آخر، ومنعه من الدخول بصلف وعنف. ملابس أحمد متسخة وخداه متسخان. كان أحمد يقول: «إن أبي هنا أريد الاطمئنان عليه»، فلم يرد عليه رجل الأمن، أو حتى يلتفت إليه.

بقي أمام المدخل الرئيسي للمستشفى، ينظر إليه من بعيد، ثم جاء مهرولاً

مسرعاً متوجهاً إلى داخل المستشفى، وحارس الأمن يصرخ به: «أيها الشقي عد إلى هنا»، وأحمد يعدو بين أقسام المستشفى، ثم يصعد الدرج حتى الدور التاسع، أعياه التعب تماما، وعندما وصل إلى الغرفة الموجود فيها والده، دهش عندما وجد السرير خالياً! قال أحد المرضى ممن كان يشارك أباه الغرفة: «هل أنت ابنه؟»

هز أحمد رأسه بالإيجاب وهو واقف أمام سرير والده.

المريض: لقد أخذوا أباك إلى غرفة العمليات، إنها المرة الثانية التي يجرون له عملية.

اقترب منه أحمد وسأل: العملية الثانية؟

المريض: نعم فقد بترت أصابعه، ثم اكتشفوا أن الغرغرينا امتدت إلى ساعد اليد كله.

مريض آخر قال: ليست هذه المشكلة، إن أبا أحمد مصاب بالسكري، ولم ينتبهوا، وقد أجروا العملية له من دون مراعاة أنه مريض بالسكر!

أحمد انسكبت دموعه، خرج بهدوء وانكسار من الغرفة، اصطدمت به إحدى الممرضات، فصرخت: «من الذي سمح لهذا المتطفل بالوصول إلى هنا؟». وتسمك بيده وتؤنبه وتشتمه.

في هذه الأثناء وصل رجل الأمن وقال: أخيرا وقعت في يدي أيها اللعين الشقي.

أمسكه وجره بيده وهو يسحبه، شاهدت طبيبة طريقة تعامل رجل الأمن القاسية، فصرخت في وجهه: ماذا تفعل إنه طفل هيا اتركه.

رجل الأمن: إنه هارب ودخل إلى المستشفى عنوة، من أجل الطعام كما تعلمين، وكما يفعل عشرات الأطفال المشردين.

أحمد يهز رأسه بالنفي والدموع تنسكب على خديه.

الطبيبة تقترب منه وتمسح دموعه وتسأله: هل أنت جائع؟ هل تريد طعاماً؟

أحمد: كلا... أريد رؤية أبي.

الطبيبة وهي تنظر إلى رجل الأمن: وأين هو أبوك أيها الصغير الوسيم؟

أحمد: لقد كان في تلك الغرفة.

الطبيبة تفتح عينيها بذهول وتسأل: هل اسمك أحمد؟

أحمد كان يمسح دموعه وهو يقول: نعم. (بتعب وإرهاق).

الطبيبة تنظر إلى رجل الأمن وتقول: هل تريد شيئا؟ هيا انصرف. ثم تمسك بيد الصغير أحمد وتدخله إلى مكتبها وتطلب منه الجلوس والانتظار.

أحمد: هل ستحضرين أبي؟

الطبية تنظر نحو أحمد وتبتسم.. وتنصرف وهي تقول: سأحضر لك طعاماً أريدك أن تتناوله أولا، مفهوم؟

أحمد يهز رأسه بالإيجاب.

تخرج الطبيبة مسرعة. يلتقيها أحد الأطباء ويقول لها: «طبيبة سهام صباح الخير.. ماذا هناك، لماذا تبدين متوترة؟».

الطبيبة سهام: صباح الخير دكتور خالد، أرجوك تعال معي فوراً.

الدكتور خالد: خير إن شاء الله...!

الطبيبة سهام وهي تسير ومعها الدكتور خالد تدخل إلى مكتب مدير عام المستشفى، وتقول وهي تخاطب مدير المستشفى: هناك أمر ملح يا سعادة الدكتور، يجب أن تطلع عليه فورا.

مدير المستشفى: ماذا هناك؟

الطبيبة سهام: الرجل المسن الذي أجرينا له عملية في وقت متأخر البارحة.

مدير المستشفى: من هذا الرجل؟ لا أذكره؟

الدكتور خالد: هل تقصدين الرجل الذي عانى من الغرغرينا ومضاعفات السكر أثناء العملية؟.

الطبيبة سهام: نعم هو..

مدير المستشفى: نعم نعم، تذكرته...

الطبيبة سهام: سيدي ابنه هنا ويسأل عن أبيه!

الدكتور خالد: ماذا؟ ابنه!

مدير المستشفى: ابنه؟... وماذا قلتِ له؟

الطبيبة سهام: لم أقل شيئا.. ماذا عساي أن أقول...!

الدكتور خالد: هذه مشكلة...

مدير المستشفى: لا تقولي له أي شيء حتى يحضر المستشار القانوني للمستشفى، ويكون معكم أثناء الحديث، هل كلامي واضح؟ لا أريد أن يلتقي بالمرضى الآخرين الذين كانوا مع أبيه في الغرفة نفسها، بل حتى مع العاملين في المستشفى، لا أريده أن يلتقي بأحد.

الطبيبة سهام تضحك باستهزاء وهي تقول: سيدي إن هذا الابن - الذي يسأل عن أبيه - مجرد طفل لم يتجاوز الثامنة من العمر.

الدكتور خالد: ماذا.. طفل؟!

مدير المستشفى: طفل في الثامنة ؟! ويضحك ضحكة مدوية.. جميل.. هذا

الخوف كله من أجل طفل!

الطبيبة سهام: سيدي ماذا أقول له؟ إنه ينتظر رؤية أبيه.

مدير المستشفى: أخبريه أن أباه ذهب إلى الجحيم.. ماذا تقولين! قولي إن أباه توفي، وإننا سنقوم بتحمل تكاليف دفنه، تقديرا لظروفهم المادية الصعبة.

الحب

1

الذي جمعنا هو كل شيء.. التقينا، تحدثنا، نظرنا، ضحكنا، شربنا، ثم ذهبنا.. لكن الحب أخطأ المكان. لأن الحب مختلف عن جميع هذه الألوان، جمعتنا رغبة.. لهفة.. جموح.. واندفاع... كل منا اعتقد أنه وجد ضالته، وفي الحقيقة لم نكن إلا كائنات حزينة، تائهة، تنظر إلى الأيام ومرورها بقلق وخوف وتردد. كنا في انتظار طويل أن نجد مكانا جميلا أو مساحة قصية أو سفحا صغيراً منزوياً، أو وادياً عميقاً سحيقاً، أن نجد الحب.. ظننا أنه يولد هكذا. قلنا إنه يأتي بعفوية. أقسمنا أنه يغمرنا، بكينا.. صرخنا.. تألمنا.. مرة أخرى لم يكن الحب منذ حقبة. أسأل ما الحب إذاً؟ تنهمر الإجابات، وتتعدد الآراء، وتكثر الكلمات والأشعار، وأبقى من دون معرفة بالسبب! تماما كما أبدو اليوم وحيدا، مسكونا بالخوف، والألم والتردد، وأيضا الرهاب!...

2

قالت بثقة إنها تحبني.. كانت علامات التعجب تتساقط على رأسي كالمطر.. لكنها أقسمت.. صدقتها.. ثم اختفت!

3

هل تؤمنون بالحب من أول نظرة؟ ألم يصبح كالأسطورة الخرافية، التي نسمعها وتعجبنا ونصدقها، لكننا في قرارات أنفسنا ندرك أنها كذبة.. لا أكثر.

4

على الرغم من حبي لها، إلا أنها عشقت آخر! المشكلة أني عندما قررت الابتعاد عنها، ذهب صغاري معها.. فبقيت وحيدا.

5

في الحب تصبح المسافات متساوية، في الحب عدالة مطلقة، لا نحتاج لحقوق المرأة أو الرجل، ولا نحتاج لتشريعات تنظم العلاقة العاطفية، ولا للعلاقة المادية، في الحب كل شيء مشاع، وكل شيء رخيص إلا الحبيب.

6

في الحب الحاجة متبادلة، وفي اللحظة نفسها لا حاجة للإفصاح عنها..

السقوط المريع !!

بماذا يفكر ذلك الإنسان الذي وصل في معاناته حدَّ مسابقة القطط على مزابل المدينة؟!.. ومنافستها على حاويات القمامة المنتشرة في الأرجاء والطرق؟!

بماذا يفكر هذا المهموم المعدم؟.. وأين يقف بطموحه وغاياته؟.. وما تطلعاته للمستقبل؟.. وكيف ينظر للحياة؟.. بل ما فلسفته عن الوجود؟.. كيف يرى نفسه والآخرين؟.. أتراه غاضباً حزيناً؟.. خائفاً أم مريضاً؟

ماذا لو اقتربنا منه فوجدناه يبتسم!.. فنتساءل هل تعكس هذه الابتسامة سعادته؟... ثم ما نلبث أن نكتشف سر هذه الابتسامة الصفراء، وأنها مجرد تمهيد بسيط ومتواضع قبل أن يبدأ في استجداء بعض النقود منك!

ثم يتواصل نزف تساؤلاتك مرة أخرى.. لماذا وصل الإنسان إلى هذه

القيمة الدونية؟! بل كيف تدرج في السقوط المريع حتى وصل إلى هذا المكان المهين؟! الذي فيه يشارك القطط والكلاب والفئران سبل عيشها وطرقها؟!

عندما نشاهد إنسانا ينقب في القمامة بحثا عن طعام لا بد أن نحترمه، لا بد أن يدعونا هذا المشهد لنتذكر كم هي ثمينة الحياة، فالإنسان يبذل جهده للمحافظة عليها مهما كلفه الأمر، من كرامته وأنفته، إنه الهروب حتى عن تلك اللحظات التي نشعر خلالها بنغزات الجوع والحاجة للطعام.

أما كيف أو لماذا.. يعيش الإنسان مثل هذه الحياة الوضيعة؟ فهو السؤال الذي سنضيع في أتونه بالتبرير والتفسير والتعليل، ثم سنختلف على التقييم والنتائج، وسنرمي أيضا هذا الإنسان بجميع الأسباب أو معظمها!.. لكن اختصارا لهذه الحالة المتوحشة يمكن أن نسأل قلوبنا، إذا كانت ما تزال تنبض بالحياة والحب؟ نسأل ضمائرنا إذا كانت ما تزال على قيد الحياة؟ نسأل أرواحنا إذا كانت ما تزال تحلق في فضاء من الطهر والخير؟ لعلها أصدق.. أبلغ.. وأوضح.... في الإجابة!!.. بقي فقط سؤال أخير وبسيط.. يا تُرى مَن المعذبون في الأرض؟ أهم أولئك المتكدسون في الطرقات، المنتشرون في الزوايا والأماكن المهملة؟.. أم هم السائرون بأنانية وقلوب لا تصغي؟!

ميـــــلاد

عند ميلاد «روزفلت» قالت أمه صارخة: «سيكون رئيس الأمة».. وعندما دوت صرخات الطفل «ريجان» قال الأب هاتفا: «سيكون رئيساً للشعب»..

عند ميلاد طفل آخر في مكان آخر، أسمى أمنية أن نجد قوته.. علاجه.. وتعليمه.. ثم «واسطة» لقبوله في الجامعة.. ثم المجد العظيم وظيفة بثلاثة آلاف ريال!!

ويـــــلٌ

ويلٌ للموت المختال على أحزاننا الدفينة

وللكراهية المتربصة بقلوبنا الخائفة..

بل لعذابات الإنسان وأوجاعه

لأنينه وألمه

لخوفه وتردده..

ولليل يكتنف المعذبين

ولشمس تلهب المساكين..

ويل لكل الأمور السوداء

للآلام المروية بدماء الأبرياء

ولدموع الكهولة والطفولة على حد السواء

وللأرض التي تنبت الأشواك وتنام فيها الورود!

كيف !!

خرج الأمل في يوم وتأخر في العودة.. فذهبت السعادة لتبحث عنه، لكنها هي أيضا لم تعد. عندها لم يتمكن الحب من أن يظل منتظرا معي فهاجر.

متأكد بأنني أوصدت الأبواب، وأغلقت النوافذ، وأطفأت الأنوار، وأحكمت المكان في يدي.. وعلى الرغم من هذا لست متأكدا كيف أمنع الروح من اللحاق بهم!!

العلقم المرير !

جاءت إلى هذا المكان بعد صراع داخل نفسها، إثر المخاوف المتراكمة في وجدانها المضطرب من نظرة المجتمع وما سيقال عنها، وبين حقها في البقاء، كونها إنسانة تناهى إلى سمعها في يوم من الأيام أن لها حقوقا لا تختلف عن أي كائن آخر ينعم ويسعد في هذا المجتمع، نسيت لبرهة من الزمن أن موانعه صممت وفق تفوق العرق المذكر.

كانت، وهي تقف أمام رجل الأمن، مضطربة وخائفة وصوتها يرتجف، والوجل يغطي مساحات وجودها المؤلم. تقول: «أريد أن أشكو زوجي؟!».. تشجعت أيضا وقامت ترفع رأسها لتجد الذهول قد تملك رجل الأمن الذي رد عليها بحدة: «زوجك !!»، ثم أخذ في الضحك وهو يسألها: «ما الذي أخرجك من منزلك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟».

كانت تكافح عادات استسلامها الطويلة، والسنوات المديدة من خفوت صوتها، وهي تهم برفعه لتجيب مقسمة برب الأرباب، ومكور الليل على النهار، وخالق الجن والإنسان، إنها ما خرجت إلا لأنها شعرت أن زوجها تجاوز مرحلة الإهانة والشتم والتحقير والضرب المستمر لها، إلى محاولة قتلها.. وإنها ما خرجت إلا خوفا من «الموت»، لأنه هو العلقم المرير الذي لم تتذوقه حتى الآن!

مجرد دكتورة!

لم أعلم، وأنا ألملم أغراضي وحاجات أطفالي بتلك السرعة القصوى، خوفا من تعرضي لمزيد من الضرب على يد زوجي، لم أعلم في تلك الساعة المتأخرة من الليل أن مأساتي لم تكن لتنتهي بخروجي من المنزل، بل إنها لتوها بدأت.

لكن المرعب كان جهلي بحقيقة وضعي كامرأة وسط مجتمعي، فعلى الرغم من أنني أعيش حبورا لوضع لقب دكتورة أمام اسمي، إلا إنني جهلت تماما جوانب أخرى محزنة جدا!

ففي تلك اللحظات العصيبة، لم يكن همِّي الثأر لكرامتي من هذا الزوج الذي اعتدى علي، أو التفكير في الطريقة المثلى لرفع دعوى قضائية تنصفني وتعوِّضني عن كرامتي التي أريقت، وإنسانيتي التي طحنت.

كلا.. كلا.. لم يكن هذا مبلغ علمي أو حد تفكيري، بل كنت مشغولة التفكير في أين أذهب وأسرتي تسكن مدينة أخرى؟ ولمن ألجأ خلال ساعات هذا الليل! كانت مطالبي بسيطة جدا، تتلخص بمكان يحتويني وأطفالي حتى انبلاج أضواء الصباح، فأنا أعلم أن أقسام الشرطة جميعها تضج بالرجال، وأنها غير مهيأة لمبيتي وصغاري، وكذلك لن يتم إسكاني في أي فندق أو شقة مفروشة من دون إذن هذا الرجل الذي قذف بي إلى الشارع.

وقبل هذا وبعده، أعلم أنني لو ذهبت إلى أي قسم شرطة فإنه سيعرف اسمي واسم عائلتي ومنصبي الوظيفي، وهو ما أحاول أن أتلافاه، فقد نشأت أسيرة الخوف من كلام الناس، ثم أيضا ماذا قد يحدث في قسم الشرطة؟ سيتم الاتصال بهيئة الأمر بالمعروف، أو بزوجي، ويتم أخذ تعهد عليه بأن يتركني أنام تلك الليلة في منزلي من دون أن يؤذيني.

في تلك اللحظات شعرت أنني بت مشكلة في مجتمعي، بل وعبئا ثقيلا!

أنا لم أحدثكم عن احتمالات أن أتعرض خلال هذه الدراما لكلمة نابية من إنسان غبي، أو حركة طائشة من إنسان أحمق، لكنني ما أزال أذكر تلك اللحظات المحملة بالخوف والألم، لم يشتتها ويسكب الاطمئنان في عروقي إلا عندما بدأت الأصوات تتعالى لتقطع صمت القلوب وسكون المكان، وعتمة الظلام تنادي لصلاة الفجر. في تلك اللحظة بالتحديد رفعت رأسي إلى السماء بكل اعتزاز وثقة، وقلت: «اللهم إنني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس».

مهانون جائعون!

تعودنا على الجوع، تعودنا على أصوات البطن الخالي من الطعام، تعودنا على قرصات الجوع ونغزاته وآلامه، كنا نبكي ونحن صغار، لكننا اليوم أقوى، أعتدنا على الطعام القليل، وتدربت أبداننا على هذه الحال.

كان يغطينا الحزن، كبرنا أكثر.. أصبحنا أصلب.. ولم تعد تعصف برؤوسنا الأوجاع، لم تعد عيوننا تتوه في رحاب المكان.

كبرنا ولم يهدنا الجوع، ولم نشعر بالفقر، لم نفكر في أي يوم أننا سنموت بسبب شح الطعام.

الجوع بالنسبة لنا: حال اعتدناه.. وقدر عشناه.. وألم ألفناه.. فلم نراهن على نزاهة الأوقات.. أو نبحث عن أخلاق الإنسان.. صحيح أننا أصبحنا مشدوهين أكثر بالبحث المضني عن لقمة العيش، أمست أكبر همومنا مشاهدة

صغارنا يتلوون ألما، وسماع صراخهم. وعلى الرغم من هذا فإن الجوع لم يكسر في قلوبنا حبها وأملها، ولم يقو على تحطيم عقولنا وأرواحنا. الجوع بالنسبة لنا كان حالة سرمدية اعتيادية. طبيعي أن تكون إنسانا جائعا، ومن غير المعقول أن يوجد إنسان يملأ بطنه بالطعام والغذاء، حتى التفكير بوجود إنسان يأكل حتى يتخم كان تفكيرا جنونيا. تعايشنا مع حافة واهنة قريبة من الموت، لكننا لم نمت!.. كنا نضحك.. نبتسم.. ونعمل...

حتى ظهر شيئ جيد في عالمنا، وهو أن تكون مشابها للحيوانات! هو أن تقترب من طبيعة الحيوانات، هبوط نحو درجة ارتقاها الإنسان منذ العصر الحجري.

هي حالة عنيفة تدك فؤادك، تضرب إحساسك. تدمر روحك. الإهانة التي تحط بك إلى القاع.. تنهار.. تبكي، إنه أخوك الذي ارتضى بجوعك بالأمس يهينك اليوم. تصرخ ذهولا.. استغرابا.. تقول: «مهانون جائعون.. مهانون وجائعون.. مهانون جائعون».

كلما زاد فقر الإنسان زادت حاجته للاحترام...

قمة العدالة !

ما تزال كثير من الحقائق في دنيانا لم تعترف بالطبقية والتفاضل بين البشر، الذي أسسنا له، وبالتالي ألغينا قيمنا ومفاهيمنا الجميلة عن الإنسان الواحد.

أقول إنه ما تزال هناك حقائق ثابتة لم تتغير أو لم تتبدل في عالمنا المعاصر، ولهذا كانت بعيدة عن نزقنا وعن أنانيتنا. هذه الحقائق التي لا تميز بين البشر ولا تفضل جنسا على آخر، أو تحب لوناً أكثر من لون.

لعل من أبرز هذه الحقائق وأهمها: حقيقة الموت.. ونزفه.. وعمقه.. وقوته، فالموت جامد من دون مشاعر، فهو لا يتأثر بالعظيم، ولا يتعاطف مع الوضيع، ولا يشفق على الفقير، ولا يرجو رضا الغني أو الأمير، فالموت قصة قديمة موجعة في مسيرة الإنسان، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، عادل يصفع

كل إنسان بلا هوادة، فلا يجامل أو يؤجل قراراته أو يبطئ مسيره، أو يؤخر مهمته، فهو ينظر إلينا نحن البشر - كل البشر- نظرة واحدة، بلا تمييز أو تعقيد أو تدقيق، فهو يقوم بمهمته بسهولة وببساطة متناهية، سواء أكان الذي بين يديه نبيلا أم مسكيناً، أم كان الذي بين يديه شريفا أو حقيراً، أو كان الذي بين يديه كبيراً أو صغيراً.

وفي الموت، تتمثل لنا قمة المساواة وقمة العدالة، فالإنسان المريض قبل دنو لحظاته، يهرول في سعي حثيث حقيقي بعيدا منه، فهو يطلب العلاج في كبرى المستشفيات، وفي أي مكان وموقع، وتتساوى في هذا السعي جميع الطبقات الإنسانية، والذي يؤسف له ويجلب الحزن أنه يشوب هذا السعي تفاضل وتمييز، فأشخاص يلقون علاجا مميزا، وآخرون يلقون إهمالا غريبا، والبعض لا يلقون شيئا نهائيا، ولكن حقيقة الألم عن المرض بالغة ولا ترحم الجميع، ولحظات الأجل المحتوم أيضا حقيقة شاملة لا ينفع معها مسكن للألم، أو مؤجل للوجع.. والجميع يسلك الطريق الحتمي.

ليتنا على الأقل نتخلى عن محسوبيتنا وواسطاتنا في المستشفيات، ليت بعضنا يعامل بعضنا الآخر، على الأقل، في تلك المواقع بمساواة وعدالة مطلقة، لأن الجميع في ذلك المكان طلبوا شيئا واحدا فقط!

أيـــــام

مضى يوم

ثم جاء الآخر

وسار الثالث بتثاقل

وأرهقني يوم منتصف الأسبوع

ثم شربت علقم الانتظار في اليوم الخامس

وبكيت.. بكيت.. اليوم السادس

وهذا أنا أهذي في السابع الموحش.

بيد الشيطان !!

كنت أحمل بين يدي صغيرتي سارة، وأشعر أنني مشتت الانتباه والتصرف، كل ما يحيط بي ضجيج المدرعات، وأزيز الطائرات وأصوات الطلقات. لم يبق من منزلي سوى هذه الغرفة التي تصدعت جدرانها. كانت سارة تبكي بشدة بعد أن وضعتها على الأريكة الحمراء المهترئة، القابعة في زاوية الغرفة المهددة بالانهيار. جعلت أنظر من فتحة في الحائط إثر قذيفة اخترقته، فشاهدت جموعا من الجند في حركة دائبة متواصلة يحيطون بمنزلي، وقد غدا جزؤه الأكبر ركاما بعد عين، والمدرعات ما تزال تواصل تصويب فوهاتها اللعينة باتجاهي. لم أعرف سببا لقسوتهم!.. أو كيف أتصرف لإفهامهم أنني إنسان مسالم جدا جدا!.. الصور المؤلمة تتراقص في مخيلتي. ذهني يكاد ينفجر من التفكير السريع، فلا أعلم ما هو مصير زوجتي الحبيبة وابني الكبير قيس، وطفلي الصغير أمجد! وهل تمكنوا من الفرار قبل هدم أركان المنزل على

رؤوسهم وهم نيام؟.. هل كان حظهم أفضل حالا مني ومن سارة؟.. أم إني وطفلتي المحظوظان حتى الآن، على الرغم من الحصار الذي يحيط بنا منذ ساعات؟

يعود يغطي هدير صوت طائرة حربية لعينة الأجواء، فأشعر أن الأرض تميد بي، وأسمع صراخ صغيرتي سارة يتعالى. أقطع تفكيري الرتيب الحزين المليء بالمخاوف والظنون، وأحملها لأضمها إلى صدري بحنان بالغ. لعلي كنت أنشد بين أضلاعها الرطبة بعض الأمن والسلام. اتجهت إلى الباب، فتحته بوهن وتردد كبيرين.. يملئ قلبي بالخوف.. فأتوقف.. إن قدمي لا تقوى على الحركة من شدة هلعي، شعرت بيد صغيرتي سارة وهي تتلمس وجهي.. أنزلت نظراتي نحوها.. لأجد وجها طفولياً بريئا يشع منه البياض وضحكات طاهرة تغطي أرجاء ضوضاء السلاح، وكأنها حوت في تلك اللحظات سعادة الدنيا بأسرها.

رجعت أضمها إلى صدري اللاهث المتصاعدة منه زفرات ساخنة. رفعت رأسي ونظرت باتجاه اليمين، فشاهدت مرآة كانت معلقة بالحائط وقد تساقطت أجزاؤها، ولم تتبق إلا قطعة صغيرة منها. رأيت وجهي من خلالها، فازداد هلعي، فقد كانت عيوني متسعة، والعرق يتصبب من جبيني. عندها أرجعت صغيرتي الحبيبة سارة عند تلك الزاوية، حيث أجلستها على الأريكة، وتقدمت باتجاه الباب مرة أخرى، فعادت الصغيرة للبكاء والصراخ. نظرت إليها وأنا أقف على عتبات الباب الخارجية، فقطع هذه النظرات المتواصلة المحملة بالخشية عليها والحب، صوت بلغة مكسرة: «أرفخ» أرفع يديك وتقدم.. واصلت المسير وقد غطاني الخوف على صغيرتي، ومصير عائلتي، وحالة الذل والهوان التي تكسوني. صوبت نظراتي إلى سارة مرة أخرى، وكان شوقي لها يتزايد في كل اللحظات، فوجدتها ما تزال تبكي بحرقة وقد احمر وجهها، والدموع تغطي هذا الوجه الطفولي. أعدت نظري نحو مجموعة من المدرعات التي تقف أمامي.، لكنني سمعت طلقة نارية. وللحظات شعرت ببرودة تجتاح

صدري وتنتشر نحو كامل كياني. نظرت إلى الأرض، ويا للهول! كنت متجها لها، فجأة وجدتني أهبط جاثيا على ركبتي وغبار المكان يتطاير من حولي، رفعت رأسي أحاول أن ألوي عنقي لمشاهدة صغيرتي سارة. لم أستطع. شعرت بشيء ساخن على فمي. رفعت يدي أتلمسه فشعرت بلزوجته الساخنة، لكنني لم أميز لونه. كل الألوان تداخلت في عيوني، ولأول مرة أجد الوجود تجتاحه القتامة بهذه السرعة. كان الضوء يتراجع ويتلاشى، والظلمة تنتشر بسرعة. أنزلت رأسي للأسفل قليلا فشاهدت صدري وقد غطي بالدماء. حاولت مرة أخرى أن أنظر إلى الخلف لأشاهد صغيرتي الحبيبة سارة.. لآخر مرة.. لآخر مرة.. كان مطلبي بسيطا.. متواضعا.. وكنت حزينا بحجم شوقها المتصاعد في بقية أنفاسي. كنت كئيبا بحجم حبي لها الذي يغطي مساحة روحي المتوثبة للصعود والانعتاق من جسدي المنتهك برصاصة قيمتها أقل من ثلاثة دولارات.. وفي فوضى حواسي.. في شرودي ويقظتي.. في هذياني وتعقلي.. وجدتها أمامي كطيف جميل ملائكي.. بيدها دميتها العتيقة.. تلبس رداء أبيض كالثلج.. وتكسوها ابتسامة مشرقة.. وضعت يدي على صدري.. قلت لها وأنا أبتسم: «حبيبتي الصغيرة سارة، لو كنت هنا لأصابتك الرصاصة التي لا تميز أبدا يا صغيرتي».

لم أعد أشعر بألم منذ تلك اللحظات.. في السماء روحي ودموعي وأحزاني بيد الله..

أما في الأرض الملتهبة حقدا وكراهية فجسد سارة بيد الأشرار.. وهناك.. هناك.. بجانب البحر، قلوب لم تحزن.. وعقول خانت.. وأجساد تلعب بيد الشيطان!

الكلاب أرحم

الكلاب تملأ الأرجاء بنباحها المزعج.. تغدو في مملكتها وسط الخرائب والمدافن والمزابل.. لا أحد ينازعها المكان.. ولا أحد مهتم بهذا الحيز المنسي وسط وهج الحضارة وصخب المدينة.

لكن الكلاب بدأت تكشر عن أنيابها.. بدأت تصبح مسعورةً متوحشةً.. الدخلاء إلى مملكتها أصبحوا كثرا.. والمزعجون لها في عالمها يتزايدون.. كأن لسان حال هذه الكلاب يقول: إن هذا الإنسان دخيل.. وحياته أنانية.. وعمره غرور.. لو اتخذنا القمر لنا وطنا لاجتاحه.. إنه يضيق أن يرانا - نحن الحيوانات - ننعم بمكان.. ننام فيه.. نعيش على أرض.

قررت الكلاب محاربة الدخلاء الجدد.. قررت إرهابهم.. طردهم...

افتراسهم فالأرض لا تتسع للجميع.. ومصادر الأكل قليلة.. لا تحتمل عبث الإنسان وتفتيشه ونبشه.

لكنها - أي الكلاب - تراجعت.. قررت فسح المجال لصديقها الأزلي الإنسان.. لأنها لأول مرة تشاهده مسكيناً.. بائساً.. وجائعاً.. لأول مرة تراه مجردا من كبريائه.. وقوته.. لأول مرة تجده ضعيفاً.. مطروداً.. داسته أرجل أخيه الإنسان.. لأول مرة يكون بهذه الحالة المزرية من البؤس والإفلاس.. لأول مرة...

أذلآء

عندما رفعت رأسي إلى السماء في تلك الوهلة بالتحديد، اكتشفت أن نفسي كانت منساقة بعفوية واندفاع للتمتع بمنظرها الخلاب، ورونقها البهي الذي يغطي الآفاق، ومشاهدة تلك السحب البيضاء المبعثرة على اللوحة العلوية الزرقاء.

في تلك اللحظة بالتحديد، بدأت أحاول استعادة الذاكرة لآخر مرة رفعت فيها رأسي للأعلى.. لكن عقلي الخائف دوما لم يسعفني.. لعلها مرة ضاربة في عمق الزمن الماضي السحيق، تلك التي تجرأت فيها ورفعت رأسي قليلا.. لطالما صمتُّ أسيرا للقمة العيش.. أو خوفا من السجن والصراخ..

لطالما سرت وركبت

نمت ونهضت

فرحت وبكيت

وأنا مطأطئ رأسي نحو الأرض

لطالما،، لطالما

الخروج

مارغريت تاتشر حكمت بريطانيا أربعة عشر عاما.. في السلم والحرب..

تزوجت.. أنجبت.. وأجادت الطهو...

مسيرة امرأة أخرى.. تبدأ بالخروج الأول: الميلاد...

ثم الخروج الثاني السعيد: الزواج...

ثم الخروج الثالث الحزين: القبر..

حتى المخارج شحيحة!